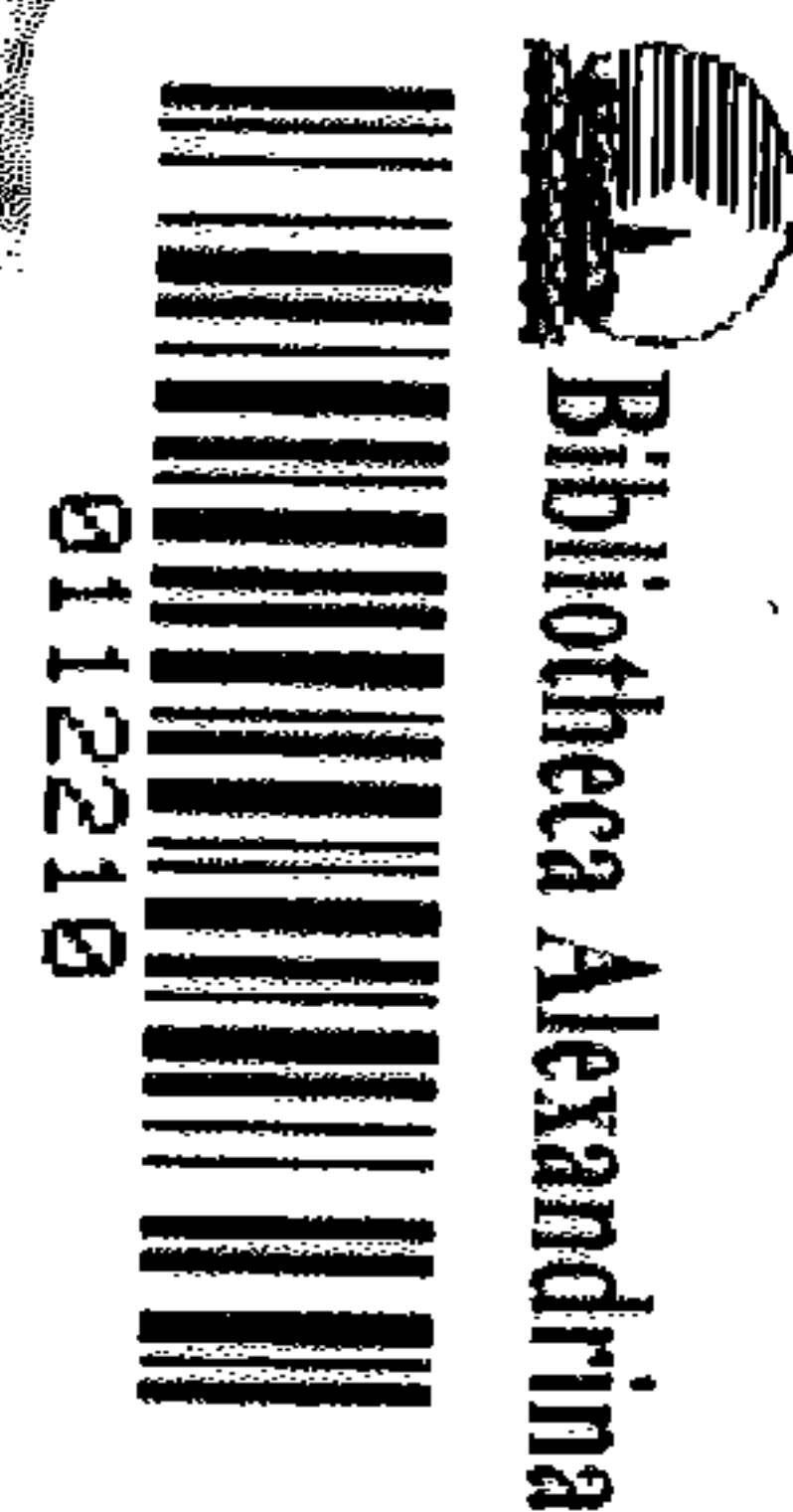
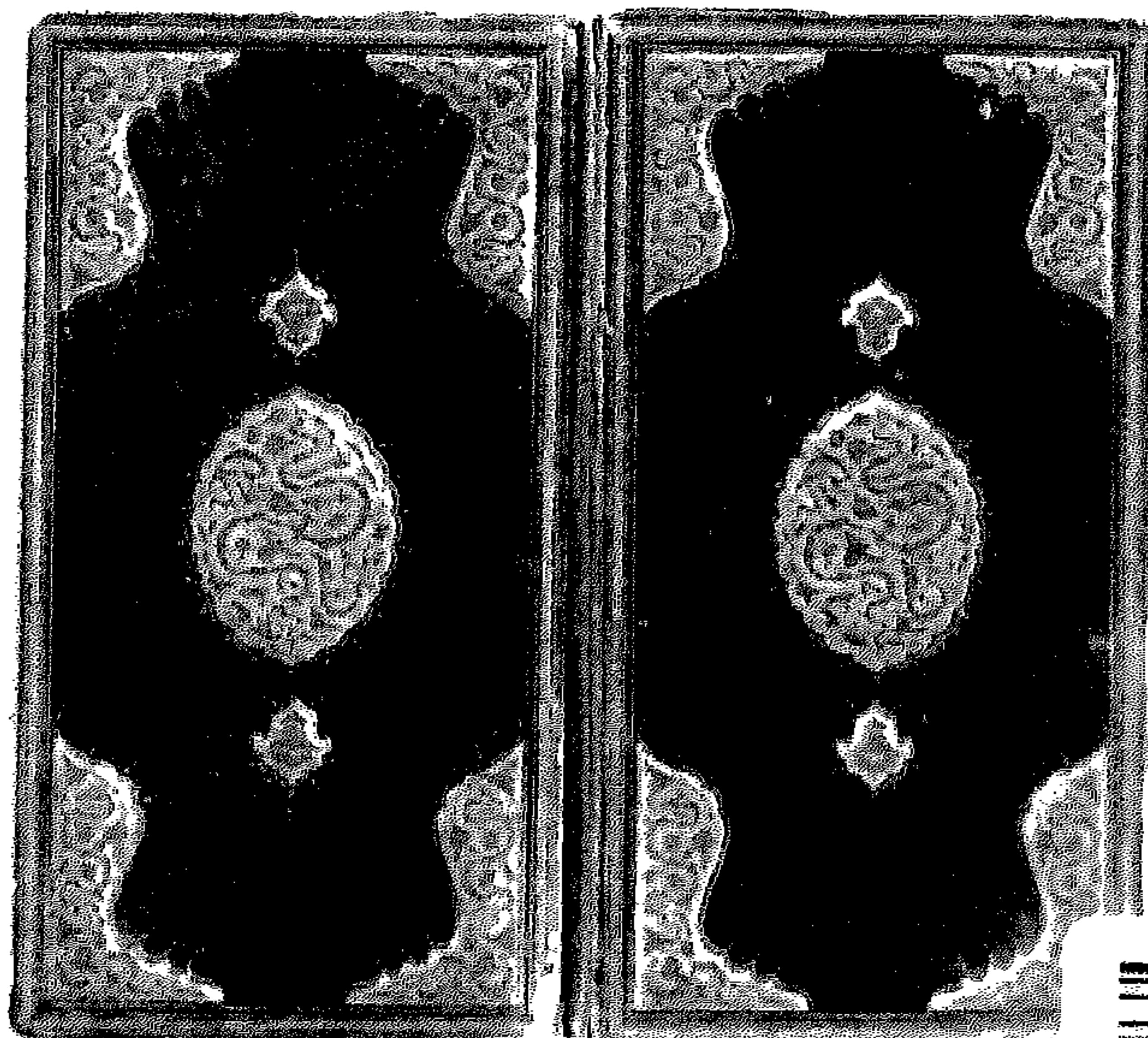


د. إبراهيم بيضون

عبد الله بن سعيد

اشكالية النص و الدور الأسطورية



دار المؤرخ العربي

د. إبراهيم بيضون

عبد الله بن سباء

اشكالية النص و الدور الاسطورة

دار المؤرخ العربي

المادة الحقوقية المحكمة ومسجلة
الطبعة الأولى
١٤١٧ - ١٩٩٧ م

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان - صرب: ٢٤/٢٤ - هاتف: ٨٤٣-٨٢٠

الخليوي: ٣/٨٩٠٨٢٠ - فاكس: ١٠١١٩

الأهداء

إلى الذين رأوا الحقيقة بقلوبهم
و سطع نورها في العقل
الذين شهروا سيفاً تحت لوازها
و غمسوا في حبرها قلماً
أرفع إلى مجد كلمتهم هذا الكتاب .

مقدمة

كان وقت غير قصير يمر ، و التاريخ لا يشكل سوى هامش في اهتمام النخبة التي دأبت على دراسة الإسلام قرآنًا و حدثًا ، دون أن تكون السيرة النبوية مندرجة حينذاك في أعماله ، بقدر ما كانت دوافعها دينية ، تتوخى في الأساس إبراز شخصية الرسول النموذج و القدوة في حياة المسلمين . ولم يكن ذلك ناجمًا عن قصور في الوعي التاريخي خارج هذا السياق ، ولكن النخبة تجنبت في ذلك الوقت ، الخوض على نطاق واسع في أخبار ليست لها هالة "الأحاديث" و لا تتمتع بدقتها ، و بالتالي تفتقد إلى ضوابطها و كل ما يجعلها خارج دائرة الشك لدى "المثقف" الملزם بالإسلام .

على أن التاريخ و قد أخذ يستقل بصورة ما عن علوم الدين ، دون أن يتحرر من رؤيتها و منهاجها ، ظلت صورته يكتنفها الغموض ، ربما لأن حرية المؤرخ في تتبع أخباره لم تكن متاحة على النحو الذي تيسر له من قبله إبان اهتمامه بعلوم القرآن و الحديث . بالإضافة إلى ذلك فإن مهمته في هذا المجال ليست خالية من الخطأ ، انطلاقاً من حالة يجسدها

التاريخ أو يتفرد بها ، وهي التي ربما كان ابن خلدون من ابرز المغامرين على ساحتها ، إذا توقفنا عند وصف ((لاكوسن)) له بأنه "خالق علم أساسي و خطر ، ألا هو التاريخ" ^١ . فما بين الحقيقة و نقايضها قد لا تكون هوة عميقه تفصل بينهما ، وهي مسافة نسبية في مطلق الأحوال .

على أن الصراع يبقى قائماً و المؤرخ لا بد له من الخوض فيه ، ليس كطرف على مساحته ، ولكن محاولة البحث الدائبة عن الحقيقة ، تبقى في طبيعة همومه ، و هي التي تقوده وراء الضوء في دهاليز النص التاريخي و شعابه ، هذه الحقيقة التي رأى ابن خلدون نفسه أنها قوة "لا يقاوم" سلطانها ^٢ ، أما نقايضها فهو باطل "يقذف بشهاب النظر شيطانه" ^٣ .

ولكن ابن خلدون - و قوله يجسد رؤية مثالية في الفكر التاريخي - قد يكون من الصعب تعميم قوله على مساحة الحدث كافية ، برغم المرجعية التي تبقى للعقل . فالخطر الذي تهيب المؤرخون الأوائل الاقتراب منه ، ليس مثله الذي يعيق المؤرخ اليوم ، أو يتزدد في ركوبه لاستشراف ما أحجم الأسلاف عمداً عن ذكره ، أولئك الذين دونوا أخبارهم و كثير منها كان ما يزال ساخناً ، مما جعلهم في بعض الأحيان طرفاً فيها ،

^١ العلامة ابن خلدون ص ٢١٢

^٢ مقدمة ابن خلدون ص ٣

^٣ المكان نفسه

منحازين للمواعق التي حملوا رويتها بوعيهم و إحساسهم، و دائمًا في ظل حركة تواصليه مع الماضي الحاضر جلياً في زمانهم .

خلافاً لذلك فإن المؤرخ الموضوعي ، ليس معنياً بالتجوال وراء حدود النص "البارد" أو الاحتراك بمشاعر صاحبه، ولكن من صلب مهمته ، تفكيك عناصر هذا النص من دون العبث فيه ، و الوصول من خلال قراءة نقدية له إلى رؤية أكثر مقاربة للحقيقة التاريخية . فلا سبيل في النتيجة سوى اقتحام الخطأ و هذا من طبيعة المؤرخ و صميم دوره ، إلا إذا كان عازفاً عن الإبحار مكتفياً بالمكوث على الضفاف . "لا توقف إذا" - كما قال الصديق ، الكاتب ، المبدع طلال سلمان ^١ - لا محطة نهائية له (المؤرخ). الجزئيات فضاء بلا نهايات ، و عليك إعادة تجميع المتماثل والمتناقض لتكوين صورة أو صور تعيد تحسيد اللحظة و النظام ^٢ .

و لعله من هذا الباب بالذات يصح الدخول في موضوعة عبد الله بن سبأ ، المتدخلة في خطوط الحدث - الفتنة، الأشد خطورة في مسار التاريخ الإسلامي. و صاحب هذه الشخصية ، و إن تحب الدارسون حتى وقت متأخر ، البحث مباشرة في ملابسات دورها و مؤثراتها الفعلية في متغيرات المرحلة ، تفرد بذكره إخباري معروف هو سيف بن

^١ صاحب ورئيس تحرير جريدة السفير

^٢ جريدة السفير (٢٣ / ٢ / ١٩٩٦)

عمر التميمي ، دون أن يأخذ بروايته سوى مؤرخ من الكبار المكرّسين ، وهو أبو جعفر الطبرى . ومن هنا تبدأ فصول أكثر المسائل تعقيداً في هذا التاريخ ، إذ أن صاحب "الرسل و الملوك" المتميّز بحبيطته ، وهو الفقيه أساساً، أورد هذه الرواية دونما تشكيك أو ما يقاربه بها، مخالفًا ما جاء إليه أحياناً قليلة في تاريخه الطويل. و لعل الباحث لا يجد من هذا المنظور سوى التعامل مع نصٍّ قائم ، اعتمدته مؤرخ رصين مثل الطبرى ، و لكنه انطلاقاً من نقاط ضعف بارزة في الرواية ، تخالجـه الشكوك في تفاصيلها قاطبةً ، حيث الطريق إليها مليء بالألغام ، و السير في شعابها محفوف بـ "الخطر".

و على الرغم من دخولي مُبكراً و على مستوى مكثف ، حلبة هذه المرحلة ، فقد أعرضت عن التوغل في الموضوعة "السبئية" ، انطلاقاً من خلل واضح في الرواية و عدم اتساق مع المناخ العام المندرجة فيه . و لكن حدث مؤخراً أن مجلة فكرية جديدة ، كلفني المشرفون عليها بدراسة في هذا الموضوع ، فلم أر بداً - وقد استجابت للأمر - أن أخوض فيه و أستعيد قراءته دون أن تغيب عن البال صعوبة المهمة و دقتها و خطورتها.

وبالعودة إلى مصدر الرواية في تاريخ الطبرى ، وجدتني مصطدماً بضحالة المادة التي جاءت مبعثرة في سياق السنوات الثلاثة و الثلاثين

والخامسة والثلاثين للهجرة . و اختصارها أن يهودياً من صنعاء (اليمن)، اعتنق الإسلام في هذا العهد و أخذ يدعو لرجعة النبي و الوصية لعلّي ، متقداً بقسوة الخليفة و مندداً بسياسة الانحراف لإدارته . فالتقى من هذا المنطلق بشخصية صحابية (أبو ذر الغفاري) ، كانت تقوم بحركة في هذا الاتجاه و نسبت إليه (ابن سباء) الرواية ، تشكيل دعوة سرية امتدت من البصرة إلى الكوفة ، فالشام و مصر حيث انخرط فيها عدد من كبار المسلمين كان بينهم أبو ذر و آخرون من الصحابة والقيادات البارزة في المرحلة .

هذه الرواية التي لم يشارك الطبرى فيها معاصروه من المؤرخين . المكرّسين ، إنما يتجلّى ضعفها الأساسي في هذا التفرد ، علماً بأن هؤلاء رروا سيرة عثمان بتفاصيلها ، دون أن يكون ما ذكره "المسعودي" عن ظهور يهودي مشعوذ في إحدى قرى الكوفة له علاقة بالحركة السبئية . وفي ضوء ذلك ، فإن المقارنة التي هي من أبرز العناصر في الكتابة التاريخية تصبح معدومة في مثل هذا الموضوع حتى لدى الطبرى نفسه الذي من عادته إيراد عدة روایات عن الحدث الواحد . و إذا استثنينا ابن الأثير - وهو مؤرخ متأخر ، نقل روایاته حتى نهاية القرن الثالث عن الطبرى - فإن المصادر التاريخية تجاهلت روایة سيف هذه، فيما المصادر "الفقهية"

اقتبستها أيضاً من هذا المكان ، ولكن في سياق التصنيف للفرق الدينية ،
ومنها السبئية منسوبة إلى مؤسسها عبد الله بن سبأ .

و كانت هذه الرواية ما تزال متداولة من جانب فريق يقبلها من
المؤرخين ، انطلاقاً من رؤيته الدينية التي ربما تتوحد فيها النظرة إلى الخليفة
" الشرعي " مع " شرعية " النص التاريخي ، وفريق آخر له اجتهاده في النظرة
إلى الاثنين ، و ينطلق من ثوابت أساسية في هذا المجال . و لم تخرج إلى
مستوى الجدل إلا في النصف الأول من هذا القرن ، حين تعرض لها
الكاتب الكبير طه حسين في دراسته القيمة " الفتنة الكبرى " . وعلمه هو
الذي كان ابن خلدون موضوعاً لأطروحته في الدكتوراه و استثار بفكرة
في اعتماد العقل طريقاً إلى الحقيقة ، كانت له رياضته في إعادة قراءة
الحركة السبئية و إخضاع صاحبها أو دوره لعملية نقد صارمة أوصلته في
النهاية إلى الشك بوجوده ، فاتحاً بذلك الباب أمام قراءات مشابهة إلا
أنها لم تبلغ مستوى قراءته في الملاحظة و التحليل و الاستنتاج .

و الواقع أن وقتاً غير قصير مرّ على هذه الدراسة قبل أن تُحدث
تغييراً فعلياً في منهج الكتابات التاريخية حول هذه المسألة ، إذ بقيت النظرة
بصيدها محكمة بالتزامن القائم على الرواية . و لكنها أخذت في ستينات
القرن تحرك الحوافز لإعادة القراءة في هذا الموضوع ، ابتداءً ب المؤرخ السيد
مرتضى العسكري الذي دفعه الاهتمام به إلى إجراء تقويم شامل لمحمل

روايات سيف بن عمر ، و منها روايته عن عبد الله بن سبأ في كتاب يحمل اسم الأخير و " أسطورته " . ولا نريد استباق الأمور هنا للحديث عمّا أضافه العسكري إلى هذه المسألة ، تاركين ذلك إلى حينه في كتابنا . على أن الدراسة التي و ضعها مؤخراً هشام جعيط عن " الفتنة " ، وما انطوت عليه من نظرة - على اقتضابها - إلى الموضوعة السبئية ، ما يجدر التنويه به ، وهي صادرة عن قراءة نقدية و واعية .

ويبقى في النهاية أن هذا الكتاب لم يكن الهدف منه الدخول في جدل حول الداعية السبئي ، سواء كان شخصية واقعية أم اسطورية ، و إنما هو محاولة قراءة جديدة ، حدثاً و دلالة ، داخل النص التاريخي و زمانه ، ذلك الذي تبقى العلاقة معه هي الأساس ، وليس شخصية " البطل " التي تصبح ثانوية في ركوب " الخطر " ، حيث لا تنتهي معاناة المؤرخ .

بيروت في ٤ / ٣ / ١٩٩٦

القسم الأول

عبد الله بن سبأ

الحدث والدلالة

الاسرائيليات

تدرج حركة عبد الله بن سبأ فيما يُعرف بالإسرائيليات في التاريخ الإسلامي ، و التي كانت تخليلاتها في يثرب ، حيث تداول اليهود - أو قيل ذلك - أخباراً عن ظهور قريب لبني ، و أخذوا يتوعدوه و يهدّون من يعتقد به . فكانوا - حسب رواية الطبرى - إذا جرى حديث بينهم و بين العرب (الأوس والخزرج) قالوا لهم : إن نبياً قد أضل زمانه ، تتّبعه و نقتلكم معه قتل عاد و إرم^١ .

ولعل حديث الاسرائيليات كان أحد الموضوعات البارزة التي أولاها عناية كبيرة الاخباريون المسلمين إلى جانب اهتمامهم بسيرة الرسول . فكان من روادها كعب الأحبار و هو عالم كبير من يهود اليمن عاصر دعوة الإسلام و لكنه تأخر في الانضمام إليها حتى خلافة أبي بكر^٢ ، أي بعد رسوخ هذا الدين و انتشاره على مساحة واسعة خارج شبه الجزيرة العربية ، و أصبح حينذاك مرجعاً للأخبار لما قبل الإسلام . فقد تتبع بعض هؤلاء الاخباريين بشغف الفترة السابقة على الإسلام ، في محاولة منهم

^١ - تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٥٤

^٢ سهيل زكار ، التاريخ عند العرب ص ٣٤

لربط الحاضر بالماضي ، وما يمكن أن تضيفه في التعرّف على الظروف والعوامل المؤثرة في العقيدة ، المتصلة جذورها بالخنيفية.

كان كعب الأحبار - وقد ظل مشكوكاً بإسلامه - أول المروجين للإسرائيлик على نطاق واسع ، مما جعل الأخيرة تتخذ ذلك المزيز في الروايات التاريخية العربية . و ثمة من يرى أنه مجرد اتهامي ركب موجة الإسلام ، و لم ينفك مستخدماً ذكائه للطعن في "سلفية"^١ الدين و إظهار ما للليهود من معرفة واسعة بالغيبيات . حدث ذلك أو شيء منه في عهد عمر بن الخطاب ، الذي تنبأ لما يضممه اليهودي المخضرم ، فيروي الطبرى أن الخليفة عندما أراد إقامة المسجد في بيت المقدس بعد فتحها ، استدعاى كعباً و سأله : "أين ترى أن نجعل المصلى ؟ فقال إلى الصخرة ، فقال (عمر) ضاهيت والله اليهودية يا كعب ... بل نجعل قبته صدره .. فإننا لم نؤمر بالصخرة ولكن أمرنا بالكعبة^٢ .

وعندما توعد أبو لؤلؤة الخليفة عمر ، كان كعب حاضراً بدوره "المشبوه" مضيفاً على الحادثة مسحة "توراتية" تذكرنا بتلك الأحواء التي سبقت هجرة النبي إلى المدينة . و في هذا السياق يروي الطبرى ، أن كعباً جاء الخليفة في اليوم التالي فقال له " يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في

^١ السلفية هنا بمعنى الابداع و الريادة . انظر لسان العرب ج ٩ ص ١٥٨

^٢ الطبرى ج ٣ ص ٦٦١

ثلاثة أيام. قال عمر : و ما يدريك ؟ قال اجده في كتاب الله عز و جل التوراة : قال عمر: الله أنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال اللهم لا، ولكنني أجد صفتكم و حلائقكم و أنه قد فني أجلكم^١ . و على الرغم من أن أحداً لم يأخذ بصحة أقوال كعب في المدينة ، فإنه على ما يبدو لم يكن بعيداً عن التهمة بأنه ضالع بصورة ما في عملية الاغتيال ، مما دفعه ربما بسبب ذلك إلى الخروج من الحجاز و الانزواء في حمص^٢ .

ولكن الملف برمتها طوي بأمر من الخليفة الجديد ، لأن التحقيق لو فتح لطال شخصيات كانت لها مصلحة في غياب الخليفة القوي ، و هي التي ألمح إليها عبيد الله بن عمر ، بعد قتله ثلاثة^٣ اعتبرهم ضالعين مباشرة في الاغتيال قائلاً: " والله لا قتلن رجالاً من شرك في دم أبي، " يعرض بالماجرين و الأنصار" حسب الرواية التاريخية^٤ . و كان على قد طالب بإجراء محاكمة للمتهمين ، من فيهم ابن الخليفة السابق ، ألا إن ذلك لقي معارضة من " بعض المهاجرين" فضلاً عن عثمان الذي حسم الأمر على الطريقة "الأموية" ، حين تحمل دية القتلى من ماله الخاص^٥ .

^١ الطبرى ج ٤ ص ١٩١

^٢ زکار المرجع السابق ص ٣٤

^٣ حفيفه و الهرمزان و انية أبي لولوة . الطبرى ج ٤ ص ٢٣٩

^٤ المكان نفسه

^٥ الطبرى ج ٤ ص ٢٣٩

ينطوي كعب الأحبار بعيداً عن الأضواء في "منفاه" ، ولكن مدرسته ظلت قائمة تجذب إليها أولئك الذين أغراهم الدخول إلى عالم الأساطير و البحث في التاريخ المجهول لما قبل الإسلام . و قبل موته نسب له القول في مجال التنبؤ : "لن يملك أحد هذه الأمة ما ملك معاوية"^١ . و قد تصدى لهذه المسألة بشكل خاص ، الاخباريون اليمنيون الذين و جدوا في الاسرائيليات مادة خصبة للتعرف إلى تاريخ بلادهم القديم . و من أبرز هؤلاء : وهب بن منبه و عبيد بن شريه في القرن الأول الهجري ، إذ راكم كلاهما وبدافع التعصب لموطنهم - كما يعتقد الدوري - أخباراً عن تاريخها هي عبارة " عن مزيج من القصص الشعبية و الاسرائيليات ، و حاولوا بذلك تمجيد عرب اليمن ، بأن نسبوا إليهم أمجاداً في الحرب و الصنعة و اللغة و الأدب و حتى في الدين ليذلّلوا على انهم سبقو عرب الشمال في أمجادهم أو أنهم لا يقلّون عنهم في ذلك"^٢ .

و قد تمنع عبيد بن شريه بشهرة خاصة في هذا المجال ، لاسيما و أنه عمر طويلاً و عاصر معاوية بن أبي سفيان الذي كان له شغف بسماع قصص التاريخ ، " ويستمر - حسب رواية المسعودي - إلى ثلث الليل في أخبار العرب و أيامها و العجم و ملوكها و سياستها لرعايتها و سير ملوك

^١ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩٥

^٢ عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٥

الأمم و حروبها و مكايدها ... و غير ذلك من أخبار الأمم السالفة^١ .
و غالباً ما استدعي معاوية عبيداً ليحدثه بمثل هذه الاخبار التي كان كثيرها
على ما يedo ملقوأو يدخل في نطاق الاساطير أكثر من الواقع .

وهكذا يدخل الفكر اليهودي عبر التاريخ الى تراث العرب ، فيشكل
مادة أساسية في أخبار المرحلة السابقة على الاسلام . و كان أكثر من
رُوّج له في ذلك الوقت المبكر الذي شهد بدايات التكوين التاريخي ،
وهب بن منبه ، وهو ولد لأم عربية في اليمن ، ألا أن الغموض يحيط
بنسب أبيه ، إذ يرى المؤرخ زكار بأنه يتحدر من "الأبناء" الفرس و ربما
اعتنق اليهودية^٢ . ولكن وهبأ سارع الى الانخراط في الاسلام ، و توصل
الى أن يكون "من خيار التابعين ... و مات وهو على قضاء صنائع" كما
 جاء في تصنيف ياقوت الحموي له^٣ ، و الذي وصفه أيضاً ، بأنه
"صاحب القصص.... كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة
بالاسرائيليات"^٤ . و على الرغم من اتخاذ سيرة الرسول حيزاً ما في أخبار

^١ مروج الذهب ج ٢ ص ٣١

^٢ سهيل زكار ، المرجع السابق ص ٣٦

^٣ معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

^٤ المصدر نفسه ج ١٩ ص ٢٥٩

وَهُبْ ، إِلَّا أَنَّهُ اهْتَمَّ أَسَاسًاً - شَائُنُ عَبْيَدُ بْنُ شَرْبَهُ - بِتَارِيخِ الْيَمَنِ ، دَاجِمًا
الكثيرَ مِنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ بِالْأَسَاطِيرِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ عَنْهُ^١ .

وَلَا شُكَّ أَنَّ تَأْثِيرَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ظَلَّ وَاضْحَىً ، وَلَوْقَتْ غَيْرَ قَصِيرٍ ، فِي
الْأَعْمَالِ التَّارِيْخِيَّةِ لِلْعَرَبِ الْمُسْلِمِينِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ عَصْرُ الْمُؤْرِخِينَ الْكَبَارِ
فِي الْقَرْنِ الْثَالِثِ الْهِجْرِيِّ ، بَاتَ مِنَ الْمَأْلُوفِ فِي مَنْهَاجِهِمْ ، وَضَعَ
مَقْدِمَاتَ لِتَوَارِيْخِهِمْ تَسْعَ لِقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ ، وَهُوَ مَا يَنْدَرِجُ
أَيْضًا فِي بَابِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ^٢ ، كَمَا يَتَجَلِّي عَلَى الْخُصُوصِ لَدِيْ كُلِّ مَنْ
الْيَعْقُوبِيُّ^٣ وَالْطَّبَرِيُّ^٤ . وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ سَارَ الْمُؤْرِخُونَ فِي الْقَرْنَيْنِ التَّالِيَّيْنِ ،
فَجَاءُتْ مَقْدِمَاتُهُمْ مَزْدَحْمَةً بِأَخْبَارِ الْأَمْمِ الْقَدِيمَةِ ، لَاسِيمًا أَخْبَارَ بَنِي
إِسْرَائِيلِ .

وَإِذَا كَانَ الْمُؤْرِخُونَ الْأَوَّلُونَ ، فِي انْكِبَابِهِمْ عَلَى التَّارِيخِ لِلْإِسْلَامِ ، قَدْ
رَأَوْا أَنَّ عَمَلَهُمْ لَا يَكْتُمُ الْأَلْأَلَ - فِي انْكِبَابِهِمْ عَلَى التَّارِيخِ لِلْإِسْلَامِ ، قَدْ
رَأَوْا أَنَّ عَمَلَهُمْ لَا يَكْتُمُ الْأَلْأَلَ - لَمْ تَعْدِمْ تَأْثِيرًا فِي أَخْبَارِهِمْ ، لَاسِيمًا تِلْكَ الَّتِي
رَبَّا عَنِّيْهِمْ -
يَشُوبُهَا تَلْفِيقٌ عَنْ حَرَكَاتِ الْمُعَارِضَةِ . وَلَيْسَ بَعِيْدًا أَنْ تَكُونَ شَخْصِيَّةٌ

^١ شَاكِرُ مُصطفَى ، التَّارِيخُ الْعَرَبِيُّ وَالْمُؤْرِخُونَ ج ١ ص ١٣٨

^٢ الْمَكَانُ نَفْسُهُ

^٣ تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ ج ١ ص ٢٤ وَمَا بَعْدُهَا

^٤ تَارِيخُ الرَّسُلِ وَالْمُلُوكِ ج ١ ص ٢٧٢ وَمَا بَعْدُهَا

عبد الله بن سبأ من ضمن ما لفّقته الروايات التاريخية ، في سياق الدفاع عن الشرعية المثلثة بالخلافة ، و التي كان المؤرخون عموماً يدورون في فلكها و يرون أنها رمز وحدة المسلمين ، كائناً من كان القائم بأمرها .

و هي مسألة لا تعدو المنهج في النهاية ، لأن المؤرخ محكوم بالنص ولا سبيل أمامه سوى الالتزام به ، ولكنه انطلاقاً من الخبرة وما يتمتع به من ثقافة تاريخية ، فضلاً عن النظرة النقدية التي يتوصّل إليها ، يستطيع ، ومن غير صعوبه التمييز بين الروايات ، شأن الذين حققوا في أحاديث الرسول فتبذلوا الكثير مما ليس مقبولاً منها . و الشك يصبح هنا من واجبات المؤرخ ، دون أن يكون غير وسيلة لاكتناف الحقيقة التاريخية ، لأن الاستسلام للنص معناه الاصطدام بمنطق الحدث الذي خضع لاعتبارات ربما مستّت الجانب الموضوعي فيه .

و ليست رواية عبد الله بن سبأ وحدها مما يشير الريب لدى المؤرخ الذي يجد نفسه أحياناً أمام أحداث ليست خالية من الصنعة أو من تدخل العنصر الخارجي فيها ، على نحو يختل بالأنسياب في مسار المرحلة .

ونتوقف هنا بشكل خاص عند حادثة "فلورندا"^١ التي يبدو أنها

^١ هي ابنة خوليان حاكم سبته الذي أرسلها إلى بلاط الملك لذريل (رودريك) في طليطلة للتأديب بآداب الملوك . فيهر جمالها الملك الذي اعتدى عليها ، مما أثار حقد خوليان الذي اتصل -

مدرسسة من المؤرخين الأسبان، كأحد العوامل التي مهدت لفتح بلادهم ، دون أن يكون لها من هدف سوى تسوية الانحراف الذي حققه العرب المسلمين في إسبانيا.

وهكذا تسرّبت إلى الفكر التاريخي العربي المؤثرات اليهودية، مؤديةً إلى تراكم الأساطير و الغيبيات فيه ، دون أن يقتصر ذلك على الحقبات السابقة على الإسلام ، ولكنها انعكست بصورة ما على أحداث بعده ، لم تخل أخبارها من نفس أسطوري . ولم يتتبّه المؤرخون من أقطاب المدرسة الحديثة كثيراً إلى هذه المسألة ، خصوصاً وأن الغالبية منهم أغفلت نقد النص التاريخي ، مما جعل أعمالهم محاكاة لاعمال الأسلاف في المضمون و الأسلوب و حتى في طريقة التفكير . و عندما ترجم المؤرخ حسن ابراهيم حسن ، كتاب المستشرق الهولندي " فان فلوتن "^١ بدا تأثيره واضحاً بالمناخ السائد في القرون الهجرية الأولى ، فاستبدل

- بالعرب وحرّضهم على غزو إسبانيا ، مقدماً لهم المساعدات العسكرية حسب الرواية التاريخية . ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤

^١ ترجمة في الثلاثينات من هذا القرن تحت عنوان " السيادة العربية و الشيعة و الاسرائيليات في عهد بني أمية " . وقد قمت بإعادة ترجمته عام ١٩٨٠ . و صدرت مؤخراً طبعة ثالثة له حاملة العنوان الأكثر مطابقة للأصل الفرنسي ، وهو : السيطرة العربية و التشيع و المعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية

بـ"المعتقدات المهدية" (في العنوان) ، "الاسرائيليات" التي وجدتها أكثر ملائمة لمنهاجه المتطابق الى حد كبير مع منهاج المؤرخين الاولئ .

من هو عبد الله بن سبأ

بعد هذا المدخل في المنهج ، نتساءل إذا كانت شخصية عبد الله بن سبأ من انتاج ذلك الموروث "الاسرائيلي" الذي احتزنته المذاكرة العربية قبل مرحلة التدوين ، او بمعنى آخر ، اذا كانت مجرد اسطورة على هامش الأحداث ، أم حقيقة تغلغلت في نسيجها ، و بالتالي كانت وراء ذلك المنعطف الأكثر خطورة في تاريخ الاسلام ؟ هذه القضية ظلت ساكنة حلال قرون عديدة ، ولم يتعد التعرض لها ما جاء في رواية سيف بن عمر "المفردة" عنها، أي انه تم التعامل معها على أساس أنها جزء لا ينفصل عن سياق ما عرف بـ "الفتنة" الاولى، بل من أدوات تفجيرها. الرئيسية عند بعض المؤرخين . ولقد بقي ذلك قائماً ، ما بقي المنهج التاريخي متوكلاً على منهج الرواية الخبرية، بعيداً عن أي نقد تحليلي أو مقارنة . على أن "السبئية" - دعوة ابن سبأ- اصطدم بها لأول مرة في هذا القرن، الكاتب الكبير طه حسين، وهو وإن لم يكن مؤرخاً الا أنه امتلك حسناً تاريخياً مرهفاً ، مكّنه من الخوض في اشكاليات مهمة على

مساحة المرحلة . و قادته أبحاثه حول ابن سباء الى التشكيك بظهوره في الاصل ، فاتحاً الباب أمام إعادة النظر في هذه المسألة و غيرها من المسائل في التاريخ الإسلامي. غير أن الشك يصبح يقيناً لدى مؤرخ معاصر ، وهو السيد مرتضى العسكري الذي تصدى على نطاق واسع لشخصية ابن سباء ، متوجاً جهوده بكتاب قارب فيه المنهج العلمي و قد صدر في ستينات هذا القرن تحت عنوان "عبد الله بن سباء وأساطير أخرى". نقول قارب هذا المنهج ، لأن الدخول كلياً فيه يقتضي الحيادية التامة وعدم الانطلاق من فكرة قائمة في تفسير التاريخ ، اذ أن العسكري يتعامل مسبقاً مع موضوعه على اساس أنه رواية ملقة هدفها النيل من على ، وربط التيار الذي يمثله بعنصر خارجي ، في حين أن المؤرخ محكم من حيث المبدأ بالعودة الى النص ، وأي استنتاج يصل اليه انا يكون من داخل هذا النص وليس بعيداً عنه . و لانقصد هنا التبخيص بما قام به هذا العالم المحقق ، ولكن الانحياز الذي يتجلى ابتداءً من المقدمة في الكتاب ، وذلك على قاعدة الرفض المطلق لوجود هذه الشخصية ، جعل منه طرفاً "مقاتلاً" ، أكثر منه مؤرخاً هادئاً يتونحى فقط الحقيقة التاريخية.

إن ما تردد من عبارات "متوترة" - إذا جاز التعبير - في مستهل الكتاب ، جاء استجابة لهذا الموقف الذي يسارع "ال العسكري" الى إعلانه. ومن ذلك: " يتلخص ما زعموا بأن يهودياً من صناع اليمن

أظهر الاسلام في عهد عثمان و اندسَ بين المسلمين و سُمّوا بطل قصتهم عبد الله بن سبأ، ولقبوه بابن الأمة السوداء.... و زعموا أن السبيئين أينما كانوا أخذوا يشرون الناس على ولاتهم .. و زعموا أن المسلمين بعد أن بايعوا علياً و خرج طلحة و الزبير لحرب الجمل ، رأى السبيئون أن رؤساء الجيشين أخذوا يتفاهمون ... فاجتمعوا ليلًا و قرروا أن يندسوا بين الجيشين و يشروا الحرب ... و زعموا أن حرب البصرة.. وقعت هكذا دون أن يكون لرؤساء الجيشين فيها رأي أو علم ... إلى هنا ينتهي هذا القاص من نقل قصة السبيئين ولا يذكر بعد ذلك عن مصيرهم شيئاً^١ .

ولعل نفي الكاتب على هذه الصورة لشخصية ابن سبأ ، قد يؤدي إلى عكس ما يتوخاه ، أي إلى تكبير هذه الشخصية و نسب أعمال خارقه إليها ، حتى لو أشارت إلى ذلك الرواية وفي هذه الحالة فإن منطق الحدث الذي يعني المؤرخ و ليس الحدث نفسه ، خصوصاً إذا كان مقطوعاً عن سياقه أو على تناقض معه. فإذا توقفنا عند حرب الجمل التي وردت في النص السالف كمسرح للسبئية ، فإنها - و استناداً إلى بمجموع الروايات - قد نضجت فكرةً في مكة بعد التئام قادة المعارضة لعلي (طلحة ، الزبير ،

^١ مرتضى العسكري ، عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى ص ٢٩ - ٣١

عائشة) و موافاة يعلي بن منية التميمي (والي عثمان على صنعاء) لهم ، و معه خراجها ، حيث أسهם و الزبير و عبد الله بن عامر (والي البصرة في عهد عثمان) في تمويل حركتهم المأوئة للخليفة^١ . وقد اختار هؤلاء البصرة بعد دراسة دقيقة ، كونها مهيئة أكثر من غيرها لتشكيل بؤرة يعملون من خلالها على إسقاط خلافة علي . و ليست الحرب التي وقعت فيها الا محصلة حتمية لخروج قادة المعارضة في جو مشحون أساساً بالعداء للخليفة ، والذي لم يكن بحاجة الى عنصر آخر يسهم في شحنه و المحرّك الى الصدام المسلح .

و في ظل هذا المناخ ، ذهبت سدي مناشدة علي لهم "في الدماء" ، اذ "أبو الا الحرب" كما يقول المسعودي^٢ . كما تبدد تحذير الممول الرئيس للحركة (يعلي بن منية) الذي قدر صعوبة الموقف في البصرة ، وأخذ يتوجه بانتظاره الى الشام^٣ ، حيث اسس معاوية سلطة قوية فيها ، متقطعاً في ذلك مع عبد الله بن عامر الذي نصح بعدم تجاهله: "فإن غلبتكم علينا فلكم الشام وإن غلبيكم على كان معاوية لكم جنة"^٤ .

^١ الطيري ج ٤ ص ٤٥٠ ، ابن الأعثم ، فتوح ج ، ص ٧٩

^٢ مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦١

^٣ الإمامة و السياسة ج ١ ص ٥٦

^٤ المكان نفسه

والسؤال مازال قائماً ... من هو عبد الله بن سبأ؟ وبدايةً لابد من القول - وهذا ما تنبه له أولاً طه حسين و خاض فيه على نطاق واسع مرتضى العسكري - أن الطبرى تفرد من بين مؤرخي جيله الكبار، بذكر هذه الرواية المنسوبة للإخباري سيف بن عمر التميمي . و لعل هذا الطبرى الذى تستهويه التفاصيل و عُرف عنه عدم الاكتفاء برواية واحدة، خلافاً لمعاصريه الذين تعمدوا الانتقاء في رواياتهم ، كان يجتهد احياناً عن هذه القاعدة، فيقع في شرك الرواية المفردة في أكثر من موضع من تاريخه المطول ، منحرفاً بها عن السياق مكاناً و زماناً ، وعن المنهج الذى التزم به على مساحة واسعة منه. ومن ذلك تلك الرواية الغريبة - وهي لسيف أيضاً - التي تتحدث عن غزوة أمر بها الخليفة عثمان الى الأندلس¹ ، دون أن يكون العرب المسلمون قد انتشروا نفوذاً فعلياً ما ي تعدى برقة في افريقيه . و إذا توقفنا عند الجزء الرابع من "تاريخه" ، والذي تغطي مادته أحداثاً شديدة الأهمية في التاريخ الاسلامي (١٦ - ٥٣٦هـ)، سنجد غالبية المرويات عن هذه الفترة مسندة الى سيف بن عمر. و هذا الأخير لا يتمتع كإخباري بالثقة نفسها التي يتمتع بها الآخرون من اعتمد على رواياتهم الطبرى ، الامر الذى يدعونا الى الحذر من ركام

¹ تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٥٥

الروايات لدى هذا المؤرخ، حيث انصبت غزيرة في مكان و تخلخلت حتى الرواية الوحيدة بل المتسرة في مكان آخر.

و بالعودة الى رواية سيف عن ابن سباء ، فإننا لانعثر فيها الا على القليل جداً من سيرة هذا الرجل ، نشأة و سلوكاً و توجهات، قبل ان يبرز فجأة في ذلك الدور المنسوب له مخترقاً و على غير مألف ، البنية الفكرية السياسية للMuslimين " في المدينة " و الامصار . فقد اكتفت الرواية بوصفه أنه " كان يهودياً من أهل صناعة ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتبر فيهم فقال لهم فيما يقول : لعجب من يزعم ان عيسى يرجع و يكذب بأن محمدأ لا يرجع . وقد قال الله عز وجل (إن الذي فرض عليك القرآن لرآدك إلى معاد) ¹ .

و قال لهم بعد ذلك : " إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد ، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء و علي خاتم الوصياء. وقال بعد ذلك "من أظلم من لم يجز وصية رسول الله (ص) ووثب على وصي رسول الله (ص) . وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : إن

¹ سورة القصص الآية ٨٥

عثمان أخذها بغير حق ، و هذا وصي رسول الله (ص) ، فانهضوا في هذا الامر فحركوه ، و ابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الامر بالمعروف و النهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الأمر^١ هذه بحمل افكار ابن سبأ في القسم الاول من الرواية و هي ترکز على قضایا أربع رئيسة :

١- فکرة الرجعة بالنسبة للرسول محمد.

٢- التأکيد على حق علي بالخلافة كوصي للنبي

٣- الطعن بعثمان الذي تولى الخلافة بغير حق .

٤- التحریض على الثورة.

و لم يكتفی ابن سبأ - و دائمًا حسب الرواية - بیث هذه الأفكار ، وإنما يسعى إلى التزویج لها في الامصار ، حيث أصاب على ما يی/do شيئاً من النجاح في مصر ، كونها أقل تأثراً بالعصبيات القبلية من الامصار الأخرى. فأخذ يستنهض أهلها ، الامر الذي أثمر بعد وقت قصير عن موقف كان الأكثر تطرفاً ضد الخليفة عثمان . و لكن المؤرخ لا يدع مثل هذه الرواية قبل أن يجابه أسئلة لابد من طرحها في هذا السياق :

^١ الطبری ج ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١

١- كيف استطاع هذا الرجل وهو حديث العهد جداً بالاسلام ، أن يصل على ذلك التحو من السرعة الى الموضع الذي صار اليه ، متحدثاً بأمور تمس عمق المعتقد الديني ، و بالتالي الانتقال بالسرعة نفسها الى قيادة التيار المناهض للخليفة على كامل مساحة الدولة الراشدية.

٢- هل كان ابن سبأ يقوم بهذه الحركة بمحافز اصلاحي ام بمحافز تضليلي انطلاقاً من خلفيته اليهودية ، و استطراداً هل كان يتحرك عبر قناعات خاصة به ، أم أن قوة خفية كانت تخطط وراءه وتدفع به الى الواجهة .

٣- علاقته بعلي ! كيف بدأت ؟ و لماذا كان الانحياز له ؟ هذا ماتجاھله رواية سيف و لم تلمع اليه أية رواية أخرى . فقد كان لعلي أنصار كثيرون ، متحمسون لحقه بالخلافة ، فلم جاء التركيز على شخصية من خارج النخبة التي عمل على استقطابها و استمد منها حضوره المعنوي البارز في ذلك الوقت ؟.

٤- هل كان ابن سبأ فعلاً هو الموجه للتيار "الاصلاحي" المعارض لعثمان؟ . و هذا يعني لو قبلنا به ، أننا نلغي تلك المقدمات التي كانت سابقة على حركته . فالرواية التي تتحدث عن انتقاله الى مصر ، تدرج في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، فيما كانت حركة أبي ذر الغفارى في العام الثلاثين منها . و بعدها بثلاثة أعوام قامت حركة الاشتراكي

في الكوفة ، متصديةً لوالي عثمان ، سعيد بن العاص ، و سياساته
الاقتصادية بشكل خاص^١ .

٥- هل كان هذا الداعية ، و انطلاقاً من الرواية، شخصية خرافية
اصطنعها خيال سيف لاضفاء عنصر جديد على روایته ، يميزه عن غيره
من الاخباريين الذين خلت روایاتهم من أية اشارة لها، أم أنها شخصية
انتهازية توخت ركوب موجة السخط على عثمان، و صولاً الى أهداف
لم يتحقق ذلك العهد تحقيقها ؟ ...

هذه الأسئلة - عدا الشك الذي تشيره - حول شخصية ابن سباء
و قدرته "الفائقة" على الدخول في نسيج المجتمع الاسلامي في ذلك
الوقت، فإنها تكشف ضعفاً في رواية سيف ، بإهمالها نقطة أساسية وهي
أن يتاح لابن سباء ، ولما يكـن قد مضـى سـوى القـليل من الاعـوام عـلـى
اسـلامـهـ، التـصـدـيـ لـمسـائـلـ كـانـتـ ماـتـزالـ مـنـ شـأنـ النـخبـةـ أوـ مـنـ يـسـمـونـ
بـذـوـيـ السـابـقـةـ . وـ لـاـ يـتـوقـفـ الـأـمـرـ عـنـ هـذـاـ الحـدـ، فـهـذـاـ الرـجـلـ "الـخـارـقـ"
ـوـفـقـاـ لـمـ جـاءـ فـيـ القـسـمـ الثـانـيـ مـنـ الرـوـاـيـةـ - يـصـبـحـ لـهـ جـهاـزـ تـنـظـيـمـيـ
ـمـتـقـنـ، وـ دـعـةـ مـنـشـرـوـنـ باـسـمـهـ فـيـ الـأـمـصـارـ ، مـاـ يـذـكـرـ بـجـهاـزـ الدـعـوـةـ
ـالـعـبـاسـيـةـ الـتـيـ اـحـتـاجـتـ إـلـىـ سـنـوـاتـ طـوـيـلـةـ لـتـنـظـيـمـ نـفـسـهـ عـلـىـ ذـلـكـ النـحـوـ .

^١ الطبرى ج ٤ ص ٢١٨

تابع الرواية فتقول : " بَثَّ (ابن سبأ) دعاته ، و كاتب من كان استفسد في الامصار و كاتبوا و دعوا في السر الى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و جعلوا يكتبون الى الامصار يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكتبهم اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصفون ، فيقرأوه أولئك في امصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الارض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما ييدون " ^١ .

هذه "الدعوة السرية" يبدو ان شيئاً من اخبارها قد تسرّب الى عثمان، فأشار عليه المقربون أن يبعث رجلاً من يثق بهم الى الامصار لاستطلاع الأمر. فانتدب محمد بن سلمة الى الكوفة وعبد الله بن عمر الى الشام ، وعمّار بن ياسر الى مصر و أسامة بن زيد الى البصرة ، فرجعوا جمِيعاً دون ملاحظة ما يريب ، باستثناء عمر الذي استماله القوم "ومنهم عبد الله بن السوداء" ^٢

و تنتهي الرواية عند هذا الحدّ ، فلا تشير الى ما كان من أمر عثمان ازاء هذه الحركة التي تولّب عليه اهل الامصار وتدعوهم الى

^١ الطبرى ج ٤ ص ٣٤١

^٢ ابن سبأ . المكان نفسه

اسقاطه. ولعل ما يستوقفنا في هذا السياق ، تلك السرية التي أحاطت بها نفسها ، في وقت كانت الاصوات مرتفعة في الاحتجاج على عثمان ، والقيادات في الامصار تتأهب للقدوم الى المدينة . وهذا الواقع لم يخف على الرجل القوي في البيت الاموي ، معاوية بن أبي سفيان ، الذي ترقب سقوط الخليفة : " والله يا أمير المؤمنين لتعتالن او لتعزيزن " استناداً الى رواية ثانية لسيف^١ .

ذلك أن والي الشام ، وقد رأى صعوبة انقاذ الخليفة في ظل النسمة الواسعة التي استهدفته ، دعاه أبناء اجتماع الولاية في المدينة (٣٤هـ) للانتقال الى الشام : " قيل ان يهجم عليك من لا قبل لك به ، فان اهل الشام على الأمر لم يزالوا^٢ ". وإذا رفض عثمان " يبع جوار رسول الله (ص) بشيء"^٣ فقد تعهد معاوية بإرسال جنود لحمايته ، ولكن من غير أن يفي بعهده ، مما جعل الخليفة فيما بعد ، يواجه مصيره وحيداً ودونما تدخل لمصلحته حتى من الجانب الاموي .

و هكذا فإن " الفتنة " التي اطاحت عثماناً ، كان اكثراً من طرف ضالع فيها ، بدءاً من قادة الكوفة الذين عانوا تسلط الولاية وتهميش

^١ الطبرى ج ٤ ص ٢٤٥

^٢ المكان نفسه

^٣ المكان نفسه

هؤلاء لهم ، وصولاً إلى مصر ، حيث كان محمد بن أبي بكر الذي عينه عثمان والياً عليها ثم تراجع عن قراره ، دور بارز في قيادة الحملة على الخليفة . ولم يكن معاوية خارج هذة الدائرة ، بدفعه الأمور إلى المأزق في المدينة ومحفزاً للانقضاض عندما تسعن الفرصة بذلك . ومن اللافت أن قادة الأنصار بعد وصولهم إلى المدينة وسيطراً عليهم على الوضع فيها خالل أربعين يوماً من الحصار للخليفة ، لم نعثر خلال هذا الوقت على أي أثر فيها (المدينة) لعبد الله بن سبأ ، ولم نجد في الروايات ، بما فيها تلك المنسوبة لسيف ، ما يوحي بأي اتصال له مع هؤلاء القادة .

قد يكون السبب أن ما تونخاه ابن سبأ قد وصل إليه وهو اندلاع الفتنة بين المسلمين ، فتراجع إلى الظلّ ، مؤدياً دوره على أتم وجه . ولكن هل كانت الدعوه إلى عليّ الذي توجهت إليه الأنظار كبديل أساسي بعد عثمان ، تدرج في سياق هذه "الفتنة"؟ فالجواب على ذلك دونه الكثير من الغموض الذي لم تستطع تلك التطورات تبديد شئ منه . فلعله (ابن سبأ) خاض "معركته" تحت ستار هذة الدعوة ، لتسويغ حركة "التضليل" التي قام بها و جذب الانصار إليها . و الجواب مرة أخرى ، أن دوره - إن صحي و جوده - لم يمت بصلة إلى التحرك الذي كان عليّ يقوده في تلك المرحلة و الذي صبّ أساساً في اتجاه المحافظة على مركز الخلافة ، والعمل على إنقاذهما من السقوط . ذلك أن علياً

الذي أعدّ نفسه لهذا الموضع بعد وفاة الرسول ، ورأى انطلاقاً من عدة اعتبارات ، أنه مؤهل لقيادة الأمة ، أصبح زاهداً بالخلافة بعد هبوب تلك الفتنة و ما تتحمله من رياح عاتية تهدد وحدة المسلمين. و لكن مخاوفه نفسها عادت فألقت به في ذلك الخضم المائج ، خصوصاً بعد انكفاء البقية من الصحابة ، ولم يجد بدأً من مواجهة الدور الذي تطلب رضوخاً أمام المحنّة ، و قيل أنه استجاب للبيعة أمام الحاج قادة الأنصار ، وفي طليعتهم الاشتّر ، استناداً إلى رواية يذكرها الطبرى^١ .

كانت تلك الحلقة المركزية في رواية سيف عن عبد الله بن سباء والتي اندرجت في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، حين بلغت الأزمة ذروتها في المدينة . فوجد هذا الداعية " الدخيل" - كما توحّي الرواية - فرصة النادرة للتحرك و ركوب الموجة التي أخذت تسع ، فيما الخليفة المتداعي موقفاً ، يضيق المدى من حوله و ينتهي صریعاً في صحب العاصفة .

وعلى الرغم من أن الخاتمة لم تحمل الكثير من المفاجأة ، فإن مقتله على ذلك النحو شكل سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام ، إذ فقدت الخلافة هيّتها ، و لم يتورّع المغامرون فيما بعد عن الانقضاض عليها ، مقتبسين الأسلوب نفسه حين تعارض مصالحهم مع الخليفة .

^١ الطبرى ج ٤ ص ٤٢٩

ولكن هل كان للسبعين دور في قتل عثمان؟ هذا نظره من باب الشك فقط ، خصوصاً وأن "اتهام" محمد بن أبي بكر بذلك ، أضفى شيئاً مناللبس على هذه المسألة . لقد شاعت "التهمة" في الواقع لدى بعض المؤرخين ، بناءً على أن محمداً كان من أواخر الذين دخلوا على عثمان قبل اغتياله . ييد أن القارئ بدقة تفاصيل ذلك اللقاء الأخير ، لا يجد معطيات كافية - سوى التحرير - ترجح هذا الاتهام ، إذ جرى ما يشبه العتاب - وإن كان حاداً بين الاثنين - خرج على اثره محمد "منكسرًا" ، حسب رواية الطبرى^١ . في هذا الوقت كان "المصريون"^٢ يحكمون حصارهم على منزل الخليفة ، و يتسلق أحدهم "السور" (سودان بن حمران) فيصرعه حسب الرواية نفسها^٣ ولو عدنا إلى ما رواه سيف عن دعوة ابن سبأ في مصر - حيث حققت ربما من النجاح أكثر من بقية الامصار - لأمكن القول - من باب الافتراض فقط - أن السبعين تسللوا في الوقت الملائم إلى صفوف "المصريين" الذين وضعوا حداً للحصار بقتل الخليفة . ولعل رواية "خليفة ابن خياط" تعزز هذا الاتجاه ، إذ تنسب إلى الحسن بن علي قوله في

^١ الطبرى ج ٤ ص ٣٩١

^٢ المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٨٨

^٣ المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٩٤

معرض الرد على سؤال ، اذا كان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والانصار ؟ "قال: لا كانوا اعلاجاً من أهل مصر" ^١ . ولكن الطريقة التي تم بها اقتحام دار عثمان ، وما صاحب ذلك من اتهاب لبيت المال ، ترجح النمط البدوي الذي اندرجت فيه قبيلة قاتل الخليفة ، و بالتالي يصبح التأثير الخارجي ضعيفاً في هذه العملية التي ألفت مثلها القبائل في "الايم" السابقة على الاسلام .

وإذا خرجنا من هذه الحلقة الاساسية في رواية سيف لتابع أطراها في تلك المرحلة ، فلا بد لنا من العودة سنوات خمس الى الوراء ، حين وردت أول اشارة عن ابن سبأ في العام الثلاثين للهجرة ، في سياق الانتفاضة التي قادها أبو ذر الغفاري ضد الخليفة عثمان . و في مقدمة ما يعنيه ذلك أن حركة المعارضة انطلقت من المدينة ، وعلى يد واحد من النخب في الاسلام الأول ، وأن عبد الله بن سبأ التحق بداعيتها في الشام ، راكباً الموجة تحت ظله ، وضارباً على وتر القضية الأساس في خطابه ، حين بادر - حسب الرواية - بقوله: "يا أبو ذر . ألا تعجب الى معاوية ، يقول : المال مال الله ! ألا ان كل شيء لله كأنه يريد أن يحتاجه دون المسلمين" ^٢

^١ تاريخ خليفة بن حياط ج ١ ص ١٩٢

^٢ تاريخ خليفة بن حياط ج ١ ص ١٩٢

لقد أصاب ذلك الهدف الرئيس عند الغفارى الذى كان يرفع شعاره في هذا الاتجاه ، مندداً بمستشار عثمان بالأموال التي يراها الخليفة أموال الله ، انطلاقاً من مفهومه للسلطة ، بأنها أيضاً "سلطة الله" . فأتى الغفارى معاوية وقال له : "ما يدعوك الى أن تسمى مال المسلمين مال الله ! قال (معاوية) : يرحمك الله يا أبا ذر ، أنسنا عباد الله ، و المال ماله ، و الخلق خلقه ، و الامر أمره . قال (أبو ذر) : فلا تقله . قال (معاوية) : فإني لا أقول : إنه ليس لله و لكن سأقول : مال المسلمين" ^١ . و لعل معاوية في ردّه المرن على أبي ذر ، إنما يكشف عن أبعاد رؤيته الواقعية في السياسة ، والتي كانت أساس مشروعه القائم على التوفيق بين الإسلام و الصيغة القبلية المتوازنة ، و هذا ما دفعه إلى تفادي الصدام مع الصحابي الكبير ، تاركاً البثّ بقضيته إلى الخليفة .

وهكذا فإن الغفارى الذي قاد حركة التصويب لمسار الحكم في الإسلام ، خالجه الشك ، وهو الصحابي القديم ، بهذا الوافد عليه . فقد اشتبه به أبو "الدرداء" - و كان مع أبي ذر - وقال له : "من أنت ؟ أظنك والله يهودياً" ^٢ . وبعد ذلك تتابع رواية سيف ، محدثة عن الغفارى

^١ الطيري ج ٤ ص ٢٨٢

^٢ الطيري ج ٤ ص ٢٨٣

و تنديده بالاغنياء ، و تحرريضه الفقراء عليهم ، حتى " ولع " ^١ به هولاء و نازعتهم نفوسيهم الى التمرد فضاق به معاوية و أعاده الى المدينة ، ومنها قام الخليفة بنفيه الى الربذة حيث توفي فيها . أما ابن سبأ ، فقد تجاهله الرواية تماماً ، دون أن تشير في الوقت نفسه الى موقف معاوية منه ، خصوصاً وأن ثمة من جاء به الى معاوية محذراً : " هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر " ^٢ .

ويغيب " السبئي " سنوات ثلاث عن رواية سيف ، حتى يعود الى الظهور مرة أخرى في سياق حملة التأديب التي استهدفت في ذلك العام (٣٣ هـ) قادة المعارضة في الكوفة و البصرة . فقد فشل ولادة عثمان في حملهم على الاستكانة ، مما دفع الخليفة الى إحالة هذه مهمته الى معاوية الذي قام بها على أكمل وجه . وجاء في الرواية أن رجلاً من عبد القيس وهو حكيم من جبلة " أفسد في الأرض ... فشكاه أهل الذمة و أهل القبلة الى عثمان ، فكتب الى عبد الله بن عامر (والي البصرة) أن احبسه و من كان مثله فلا يخرج من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً ، فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها . فلما قدم ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) نزل عليه و اجتمع اليه نفر ، فطرح لهم ابن السوداء و لم يصرح ،

^١ المكان نفسه

^٢ الطيري ج ٤ ص ٢٨٣

فقبلوا منه واستعظموه ، وأرسل اليه ابن عامر ، فسأله : ما انت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام و رغب في جوارك ، فقال : ما يبلغني ذلك ، أخرج عني ، فخرج حتى أتى الكوفة ، فأنخرج منها فاستقر في مصر و جعل يكتابهم و يكتابونه " ويختلف " الرجال بينهم " ^١ . و لعل ما يدعو الى الغرابة هنا ، أن يتحرك ابن سبأ بمثل تلك الحرية ، و يجوب دونما عائق الولايات ، ناشراً أفكاره ضد السلطة التي كانت متشددة في ملاحقة المعارضة ، كما تبدي لنا من الرواية حول سجن حكيم بن جبلة بتهمة هي على الأرجح سياسية ، وما تبع ذلك من نفي آخرين الى الشام ^٢ . فهذه السلطة التي ضاقت بحركة الغفارى ، وهو سابق في الاسلام و له موقع معنوي بارز فيه ، بحدتها تتصرف بشيء من الليونة مع ابن سبأ ، وهو بعد خارج الاسلام أو " راغب " فيه كما عرف عن نفسه في الرواية . فاقتصرت ردّة الفعل إزاءه على نفيه من البصرة ، على غرار ما جرى له في الشام على يد معاوية فيما بعد ^٣ . فهل يكون مردّ هذا الموقف الى دافعين ؟ :

^١ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٦ - ٣٢٧

^٢ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٧

^٣ الطبرى ج ٤ ص ٣٤٠

- ١- إن أركان الحكم جهلو تفاصيل الحركة "السرية" التي يقودها ابن سبأ، استناداً إلى قول عبد الله بن عامر في الرواية "ما بلغني ذلك".
- ٢- إن هؤلاء لم يجدوا فيها خطراً على "نظامهم" ، كما وجدوا في حركة الغفاري الذي خاطبهم من موقع الاسلام ، بما ينطوي عليه ذلك من إخراج مباشر لل الخليفة و سلطته "الالهية"؟ .
وهكذا ، بناءً على هذه الرواية المفردة عن ابن سبأ ، فإن الاخير لم يحقق ما تونحه من بحث ، لا في مركز الخلافة ، ولا في الامصار الثلاثة (البصرة ، الكوفة ، الشام) . ولكنها على ما يبدو وصل إلى شيء منه في مصر التي أكره على اللجوء إليها ، ممارساً نشاطه بسرية تامة و بعيداً عن المراقبة المباشرة . و إذا كان من مصلحتات ذلك ، أو من باب افتراضها أن وفد أهل مصر بدا أكثر حدة في معارضته للخليفة عثمان بعد قدمه المدينة ، فإن ما حدث في الاخير من تطورات خطيرة لم تكن خاضعة كما تبين لمؤثرات مسبقة ، بقدر ما اسهم المناخ الداخلي فيها . ذلك أن قادة الامصار لم يحملوا معهم خطة مبيته لقتل الخليفة وانما طرأت عوامل جديدة ، جعلت هذا الامر سبيلاً ربما لدى بعضهم للخروج من الأزمة المعقّدة . و ثمة ما يمكن التوقف عنده أخيراً في هذا السياق ، وهو علاقة السبئيين بالتطهير الذي أبداه "أهل مصر" إزاء الخليفة عثمان . فإذا رجعنا إلى الرواية نجد أن "إخراج" ابن سبأ إلى مصر تم على يد معاوية

بعد بلوغه إلى الشام قادماً من الكوفة في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، أي في العام نفسه الذي توجهت فيه وفود أهل الأمصار إلى المدينة ... فهل استطاع ، و على ذلك النحو من السرعة ، أن يُثْ دعوته في هذا الأقليم ، و أن " يُوسع " اتباعه " الأرض أذاعة " كما جاء في الرواية^١. ومن اللافت أن " السبئي " نفتقده في الحركة التي يفترض - وفقاً للرواية - أن يكون في مقدمتها و هي التي تطورت إلى قتل الخليفة (عثمان) . لعله كان يحيط نفسه بسريه شديدة في ذلك الوقت ، حتى إذا احتملت المواجهة في البصرة بعد اتخاذها مقرًا لمناورة الخليفة علي - و دائماً و بالاستناد إلى رواية سيف - ظهر بقوة كمحرك ل الفتنه و داعية للحرب على رأس جماعه من المصريين تدفع في هذا الاتجاه^٢ . وكانت تلك آخر مرّة يتزدّد فيها ذكر السبئي ، معيرة عنه الرواية يابن السوداء أو عبد الله ابن السوداء^٣ .

ولكن السبئيين كتّيار سيفي لهم دور بعد نهاية حرب البصرة ، متخذين حيزاً مستقلاً عن الخليفة (علي) . فقد جاء في الرواية : " واعجلت السبئية علياً عن المقام ، و ارتحلوا بغير إذنه ، فارتحل في آثارهم

^١ الطبرى ج ٤ ص ٣٤١

^٢ سيف بن عمر ، الفتنه ص ١٤٧

^٣ المصدر نفسه ص ١٤٨

ليقطع عليهم امراً إن كانوا أرادوه^١. على أن هذا الدور بقي غامضاً، ولم ير شح منه ما ينْمِ عن أي نشاط لهم خلال الوقت الذي أمضاه على خليفة في الكوفة. فهل يعني ذلك أن دور السبئي انتهى عند هذا الحد بعدهما أشعل الفتنة وشق وحدة المسلمين؟ ولكن الأيدو غريباً لمن قام بمثل هذا الدور أن تغفل المصادر التاريخية أخباره بصورة قاطعة؟.

إن كثيراً من عناصر الضعف تحيط في الواقع برواية سيف بن عمر عن عبد الله بن سبأ، مما يعرضها للشك من منظور علمي، ومن منظور المنطق التاريخي نفسه. وكونها رواية مفردة، بعد اهمال ركام الروايات بهذه الشخصية الغامضة، يعزّز هذا الشك الذي يُبني على المقارنة و النقد و التحليل، وليس على الرفض المبدئي الذي أعلنه مسبقاً بعض المؤرخين لأسباب خاصة بهم. كذلك فإن الرواية بحد ذاتها مرتبكة و لا تقدم من المعطيات ما هو كاف للإحاطة. علامات الدور الذي قام به هذا "اليهودي" القادم حديثاً إلى الإسلام.

وسواء كانت هذه الشخصية موجودة بالفعل، أم أنها تلفيق من انتاج التواتر الإخباري المعقد، فإن الدور المنسوب لها لا يشكل بنظر المؤرخ العلمي تلك الأهمية التي أحاطت به. وبناء على ذلك فإن حركة ابن

^١ الطبرى ج ٤ ص ٥٤٣ - ٥٤٤

سبأ، بالقليل جداً من المادة حولها ، من الصعب اتخاذ موقف أكثر
وضوحاً بشأنها ، وهي لا تعدو وبالتالي أن تكون - إن وجدت فعلاً -
على هامش المسار التاريخي ، سواء بالنسبة للمعارضة بشكل عام ، أو
بالنسبة لعلاقتها بعلي والتسيّع بشكل خاص.

القسم الثاني

عبد الله بن سبأ في الدراسات الحديثة و المعاصرة

مدخل

لم تُعد "حركة" ابن سبأ اهتماماً من جانب المؤرخين الذين تناولوا مسار الخلافة الراشدية بشكل عام ، وتطورات الفتنة بشكل خاص . غير أن أحداً لم يخض في تفاصيلها بما يلقي الضوء كافياً على خلفياتها وتوجهاتها ، فضلاً عن النتائج التي اسفرت عنها ، كذلك فإن اختلافاً بين هؤلاء المؤرخين في تقدير حجمها وانعكاساتها على المرحلة . فمنهم من سلم بها كحقيقة ، أو على الأقل كجزء من المسار التاريخي ، ينطبق عليه ما ينطبق على بقية الأجزاء ، ومنهم من تجاهلها تماماً ، أو دفع بها إلى موقع ثانوي في أبحاثه^١ ، و منهم من ارتاب بحدوثها^٢ و تعامل بحذر مع الرواية التي حملت أخبارها ، و منهم أخيراً من رفضها بالمطلق^٣ ورأى فيها مجرد تلفيق تعمده إخباري لا تتمتع رواياته بالثقة التامة . ولعل ابرز من يمثل الاتجاه الأخير ، مرتضى العسكري الذي يعود له الفضل في طرح هذه المسألة على نطاق واسع . فلم يكتف بالطعن في الرواية و أنها

^١ محمد عبد الحفي شعبان ، صدر الاسلام والدولة الاموية

^٢ هشام جعبيط ، الفتنة ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر

^٣ طه حسين ، الفتنة الكبيرى

^٤ مرتضى العسكري ، عبد الله بن سبأ واساطير اخرى

اسقط ذلك على جميع الروايات المنسوبة لصاحبها (سيف بن عمر) ليخلص في النهاية الى ادراجها في باب القصص الذي يقتل "السم والفراغ"^١ حسب تعبيره . أما رائد المشككين بها فهو طه حسين ، ثم انضم اليه مؤخراً بوتيرة ارفع ، هشام جعيط الذي قادته ابجاثه عن الفتنه الى حسم موقفه إزاءها باتجاه الرفض .

ويقى الاتجاه الداعم لوجود ابن سبأ وهو متمثل بالأكثريه من المؤرخين ، ومعظمهم ينتمي الى مدرسة لا تعطي كبير شأن للنقد التاريخي ، وهي تكاد تكون مجرد اقتباس عن مدرسة المؤرخين الاولى ، بما صاحبها من مؤثرات داخلية وخارجية اعاقت عنصر الموضوعية في رواياتها . كذلك فإن احتفاظ اصحاب هذا الاتجاه بالرؤية الدينية ذاتها التي سيطرت على اسلافهم ، حال بينهم وبين الخروج الى الرؤية العلمية ، فتعاملوا مع النص التاريخي كحقيقة مطلقة ، تماماً كما تعامل الاسلاف مع احاديث الرسول ، بل ان هذه رهنا خضعت للنقد او التمييز بين الصحيح وبين الضعيف منها ، ما لم تخضع له الروايات التاريخية التي ظلت جامدة ولم يجر عليها النقد لوقت طويل . ولعل هؤلاء تأثروا بالمرحلة التي أعقبت سقوط الخلافة (العثمانية) في العقد الثالث من هذا القرن ، حين بدأ ظهور عدد

^١ المرجع نفسه ص ٢٥٧

من المؤرخين والمفكرين ، من عاش في وجدانهم رمز الخلافة وما يجسده
من تشبث بالتراث الى حد الانفصال احياناً عن الحاضر .

وفي ضوء هذا الواقع جاءت بعض أعمال المرحلة ، مطابقة روحًا
ومنهجاً للتراث ، لاسيما المصنفات التاريخية التي التزمت بحرفية النص ،
دون ان تتوغل في اعماقه او تمس عناصر الضعف فيه . و هؤلاء قد يمثلهم
حسن ابراهيم حسن و احمد امين بوجه خاص ، إذ أن كلاهما ، على
أهمية ما قدّمه من أعمال ، كان مشدوداً ، ليس فقط نحو التراث ، ولكنه
أقام تحت سقفه و تحدث بلغته و احترف اسلوبه . ومن اللافت هنا ان
الدراسات التي ظهرت ما بين الثلثينات والخمسينات من هذا القرن ،
سلم اصحابها - باستثناء طه حسين - بوجود ابن سباء و حركته ، فيما
اهتزت هذه النظرة لدى المؤرخين المعاصرين الذين كانوا أكثر التزاماً
بالقواعد المنهجية من الجيل السابق . ويعود ذلك الى طبيعة المرحلة
الجديدة و ثقافتها و التيارات الفكرية المتصارعة فيها ، مما شكل دفعاً .

لحركة البحث العلمي التي كان للدراسات التاريخية نصيب وافر منها .
وستعرض هنا بجمل الآراء في قضية ابن سباء ، من خلال أبرز المراجع
التي تناولتها ، وذلك بدءاً باصحاب الاتجاه الاول المسلم بها :

المحازون الى الرواية

أ- حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي .

يعتبر هذا المؤرخ أن الخلل الذي أصاب الدولة الاسلامية "نتيجة لسياسة عثمان المالية وما أسف عن ذلك من ظهور طبقة أرستقراطية وطبقة أخرى فقيرة معدمة انشأها عمال عثمان" ^١ ، دفع بال المسلمين الى "التمرد في المدينة وفي جميع الامصار ، فكان هذا الجحود ملائمة تماماً تماماً الملائمة ومهيأة لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لفّ لفه والتأثر بها الى أبعد حد" ^٢ . هكذا يظهر فجأة هذا الداعية ومن دون أي مقدمات تجعلنا على معرفة ما بطبيعة دوره واهدافه ، فضلاً عن اسباب حملته على الخليفة . وإذا تجاوزنا قناعات المؤرخ حسن بقصد هذه القضية ، فإن منطق الحدث سرعان ما يهتز لديه ، آخذًا به الى التناقض حين يقول : ان الثورة على

^١ تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٥٨

^٢ المكان نفسه

عثمان أذكّاها "صحابي قديم اشتهر بالورع والتقوى - و كان من كبار أئمة الحديث - و هو أبو ذر الغفاري الذي تحدى سياسة عثمان و معاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنائع هو عبد الله بن سبأ ، و كان يهودياً فاسلم ^١ .

والغفاري الذي كان ينتمي أساساً إلى تيار مناهض لعثمان منذ بيعته بالخلافة وربما قبل أن يعتنق ابن سبأ الاسلام (تقول الرواية أنه اسلم في عهد عثمان) ، من الصعب القبول بأن حركته انطلقت بتحريض من هذا " الداعية اليهودي " . المؤرخ حسن لا يخرج عن اطار رواية سيف ، ولكن كونه ينتمي إلى منهج الرواية الخبرية إذا جاز التعبير ، لا يستطيع ضبط الإيقاع في سياقه الذي ييدو مرة أخرى عرضة للاحتلال أو التناقض ، عندما يعقد الريادة في حركة المعارضة لابن سبأ و يصفه بـ " اول من حرض الناس على كره عثمان " ^٢ ، متجاهلاً ذلك التيار الواسع الذي أخذ يتفاعل فيه هذا الشعور ، قبل ظهور الداعية السبئي الطارئ فجأة على المدينة . فهو يرى أن عوامل النعمة تفاعلت في نفس أبي ذر ، حتى جاء ابن سبأ فعمل على اطلاقها حيث وقع الاول في شرك الثاني ، او استدرج للوقوع فيه . وهو ما عبر عنه المؤرخ حسن بقوله : " لقد

^١ انظر الكتاب ج ١ ص ٣٥٨

^٢ المرجع نفسه ج ١ ص ٣٥٩

وَجَدَ ابْنَ سَبَأً ... الْطَّرِيقُ مَهْدَةٌ لِخَلْعِهِ (عُثْمَانَ) . وَلَسْنَا نَشَكُ فِي حَسْنِ نِيَةِ أَبْيَ ذَرَّ ، وَمَا كَانَ مِنْ اسْتِيَاهُ مِنْ عُثْمَانَ وَمِنْ سِيَاسَتِهِ . فَقَدْ كَانَ مَصْدِرُ اسْتِيَاهِهِ مَا كَانَ يَعْتَقِدُهُ فِي عُثْمَانَ هُوَادَةٌ فِي الدِّينِ وَتَهَاوُنٌ فِي احْكَامِهِ ، بِخَلْفِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ابْنَ سَبَأً^{١١} .

وَلَعِلَّ هَذَا الْمُؤْرِخُ اسْتَبَقَ الْأَمْرَ وَذَهَبَ فِي اعْتِقَادِهِ بِأَنَّ حَرْكَةَ الْغَفَارِيِّ كَانَتْ تَدْعُوا إِلَى خَلْعِ عُثْمَانَ ، وَهُوَ مَا لَمْ يُرَدْ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِهَا أَوْ يُلْمِعَ إِلَيْهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . فَقَدْ كَانَتْ مُنْطَلِقَاتُهُ تَصْحِيحِيَّةٌ فِي الْأَسَاسِ ، وَلَا يَرِنُونَ مِنْ خَلَالِهَا إِلَى مَا يَتَعَدُّ تَصْوِيبُ مَسِيرَةِ الْخَلِيفَةِ بِاتِّجَاهِ الْعَدْلِ بَيْنَ رُعَيْتِهِ . بَلْ أَنْ مُثْلِهِ هَذَا الْهَدْفُ لَمْ يَرَاوِدْ قَادِهِ الْأَمْصَارَ الَّذِينَ جَاءُوا بِنَفْسِ الْحَافِزِ الْاَصْلَاحِيِّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَمْ يَجْرُؤُ أَحَدُهُمْ عَلَى التَّفَوُهِ بِمَا يُشِيرُ إِلَى خَلْعِ الْخَلِيفَةِ ، ذَلِكَ الَّذِي جَاءَ فِيمَا بَعْدِ نَتْيَاجَةِ الْأَجْوَاءِ الْمَشْحُونَةِ فِي عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَائِمًا فِي وَعِيِّ الثَّائِرِيْنَ مِنْ قَبْلِهِ .

وَالْمُؤْرِخُ حَسْنٌ يَعْطِي الرَّوَايَةَ حِجْمًا قَدْ لَا تَحْتَلُّهُ لَدِي الْطَّبِيرِيِّ، خَصْصُوصًا مَا تَعْلَقَ بِدُورِ ابْنِ سَبَأٍ فِي الْأَمْصَارِ : (حَقْقُ ابْنِ سَبَأٍ مَا كَانَ يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ تَأْلِيبِ الْوَلَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى عُثْمَانَ)^{١٢} . وَهُوَ امْرٌ أَوْحَتِ الرَّوَايَةِ بِعَكْسِهِ ، رَبِّمَا بِإِسْتِثنَاءِ مَصْرُّ الْتِي وَجَدَ فِيهَا عَلَى مَا يَبْلُو

^١ انظر الكتاب ج ١ ص ٣٥٩

^٢ المرجع نفسه ج ١ ص ٣٦٢

أرضًا خصبة لدعوته ، وذلك لشدة " سخط اهلها على عثمان و على عبد الله بن سعد بن أبي سرح " ^١ استناداً الى قول المؤرخ حسن. وهو من هذا المنطلق يكاد يجعل ثورة " المصريين " من نتاج الدعوة السبئية التي ادرج فيما اثنان من أكثر المتحمسين لعلي وهم : محمد بن أبي بكر و محمد بن أبي حذيفة ^٢ . وينسب الى الثاني أنه " قام بتنفيذ الخطة التي رسماها ابن سبا " ^٣ ، على نحو يصبح على و كأنه ليس بعيداً عن هذه الخطة التي استهدفت إطاحة الخليفة عثمان وفقاً لتصور هذا المؤرخ .

إن حسن إبراهيم حسن ، وهو الأقرب الى الاتجاه التقليدي في تفسير التاريخ ، تدرج هذه الرواية في كتابه ، شأن بقية الروايات دون ان يخالجه الشك مطلقاً بذلك البروز المفتعل لابن سبا في قلب الاحداث . وعلى العكس من ذلك ، فقد اضفى عليها من الأجراء ما أسمهم في دعمها و تعزيز حدوثها . و لعله كان أكثر مورخى هذا الاتجاه اهتماماً بهذه المسألة ، مما يتجلى في الحيز الذي اتخذته في سياق الفتنة ، والتدخل المباشر معها ، خصوصاً في تفاصيلها الاخيرة .

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٣٦٠

^٢ المرجع السابق ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١

^٣ المرجع السابق ج ١ ص ٣٦٢

ب - أحمد أمين : فجر الاسلام - ضحى الاسلام .

لم يقف طويلاً هذا الكاتب عند قضية ابن سبا ، وهو أمر لم يكن خاضعاً لوقفه من الأخير ، بقدر ما هو مرتبط بالموضوع الذي يخوض فيه ، إذ أن أمين يهتم أساساً بعادة الحضارة الاسلامية ، ولا يعنيه من التاريخ سوى الاطار ، ومن أحداثه إلا الموظفة في خدمة الهدف الذي تتوخاه دراساته ، في الفقه والأدب والعلوم وما إلى ذلك . وهو عموماً يفتقد إلى منهج المؤرخ ويتجنح عن القواعد والضوابط فيه ، لاسيما التوثيق الذي تكاد تخلو منه أهواه ، مقتصرة في الغالب على توضيحات لغوية ليس أكثر . على أن هذا الكاتب ، وقد جال في موضوعاته على مساحة التاريخ ، لم يكن باستطاعته الانفصال عنها ، حتى ليُدرج أحياناً بين المؤرخين ، لما يثار حول احكامه من جدل في هذا المجال . ولعل مُرد ذلك ، إلى أنه قرأ التراث بعيوني اديب وليس برأية المؤرخ الواقعية ، الامر الذي أخذ به أحياناً إلى الانحياز والإنحراف عن الموضوعية المجردة .

وفي ضوء هذا المنهج يتعرض أمين لشخصية ابن سبا ودعوته في سياق الفصل الثاني من " فجر الاسلام " وتحت عنوان " الشيعة " ، مهدداً بذلك بالحديث عن تكون فكرة " الوصية " عند هذه الفرقـة ، تلك التي

كان برأيه ، عبد الله بن سبأ أول المروّجين لها في دعوته الى " تأليه " على ^١ .

ومن اللافت هنا ، أنه لم يعد الى الرواية في " تاريخ الطبرى " و التي لم يرد فيها ما يشير الى فكرة التأليه ، بل اعتمد على ما اورده ابن حزم بشأنها ، دون ان يكون الاخير وهو فقيه وله في النتيجه موقف خاص ، المصدر الصالح لهذه المسألة . يقول امين : " والذى يؤخذ من تاريخه (ابن سبأ) أنه وضع تعاليم هدم الاسلام وألف جمعية سرية لبث تعاليمه و اتخذ الاسلام ستاراً يستر به نياته ... وأشهر تعاليمه الوصاية والرجعة" ^٢ وبعد شرح مقتضب للفكرتين الأخيرتين لدى " السبئي " وجدور الرجعه خصوصاً في العقائدتين اليهودية و النصرانيه ، ومن ثم تطورها عند الشيعه الى العقيدة" ^٣ ، يعود الى زّج فكرة " الالوهية " دونما تسويف لهذا الاستنتاج غير المبني على مادة خاصة بهذا الموضوع . ومن ذلك قوله : " والناظر الى هذا يعجب للسبب الذي دعاه (ابن سبأ) الى الاعتقاد باللوهية علي ، مع أن احداً لم يقل باللوهية محمد (ص) . وعلى نفسه يصرّح بالاسلام وتبعيته محمد(ص) . والعلة في نظرنا - والكلام ما زال لأمين - أن شيعة

^١ فجر الاسلام ص ٢٦٩

^٢ المكان نفسه

^٣ المرجع نفسه ص ٢٧٠

علي رأوا فيه من المعجزات و العلم بالغييات الشئ الكثير ، و قالوا انه
كان يعلم كل شئ ، و وضعوا على لسانه ما جاء في نهج البلاغة :
اسألوني قبل ان تفقدوني" ١ .

ولعل هذا الكاتب ، وهو يتحرك في سياق موقف خاص لم يأت مبنياً
على الواقع بقدر ما يعبر عن افكار لا تنطلق منها في نفسه ، يشكك هنا
في نسبة " نهج البلاغة " لعلي ، كما يحمل عبارته الشهيرة السابقة
"اسألوني قبل ان تفقدوني " مغزى الهياً " ليس فيها ، لتسويغ اجتهاده في
هذا السبيل . ذلك ان علياً وهو المتصف بإجماع الروايات - بعلم لم يصل
إلى مستوى احد في زمانه ، ومن ثم بمعونة الاسلام جعلت الخليفة عمر
ابن الخطاب يعود اليه في المسائل الصعبه ، انا كان يعبر عن هذا الموضع في
العبارة السابقة ، وليس الى " علم الغويات " كما اشار الكاتب .

وثمة ما يثير الريب في الواقع هو المنهج ذاته لدى أمين ، بأدراجه هذه
المسألة ، على نحو لا يخلو من اللبس المتعمد ، إذ يختفي اسم السبئي بعد
ذلك ولا يشار الا ضمناً اليه، كما في حديث الكاتب عن التنبئات
قائلاً: "وروا له أنه أخبر بقتل الحسين و أخبر بكرباء و أخبر بالحجاج
و أخبر بالخوارج و مصيرهم ، و بني أمية و ملوكهم ، و أخبر ببني بويه و أيام

١ المكان نفسه

دولتهم ، وأخير عبد الله بن العباس بانتقال الامر الى اولاده ...^١ .
 فهو - أي الكاتب - عدا انه لم يسند هذه الاخبار - الغيبات الى
مصادرها ، فإن المقصود هنا الشيعة الذين اقتسوا - برأيه - مثل هذه
الافكار من العراق ، حيث الاكثرية من هذه الفرقه كون هذا الاقليم
"منبع الديانات المختلفة و المذاهب الغريبة " حسب تعبيره^٢ .

وفي ضوء ذلك يستخدم احمد أمين شخصية ابن سباء لإبراز فكرة
"الالوهيه" لعلي و الحديث عن "المعجزات" التي زعم أن الشيعة أصقوها
به . بل أنه لم يتميز بين الشيعة و الغلاة منها، و الذين آمنوا به مثل هذه
الأفكار في وقت متأخر عن المرحلة التي يخوض فيها الكاتب . ومن هنا
 فهو لا يضيف جديداً إلى هذه المسألة ، بل انه فيما جنح اليه ، ابتعد كثيراً
عن موضوعة ابن سباء ، وترك من اللبس حول الاخير ما كان محاطاً به في
الاساس، هذا على الرغم من تسليمه المطلق بوجود هذه الشخصية .

أما في كتابه الآخر (ضحي الاسلام) فيكتفي من أخبار السبعي ما
تعلق بدوره في الشام ، مؤازراً حركة الصحابي ابي ذر الغفاري . وقد
تطرق هنا الى الجانب النظري في دعوة ابن سباء بوصفه "صاحب القول

^١ المكان نفسه

^٢ المرجع نفسه ص ٢٧١

برجعة النبي الى الدنيا ووصاية علي على الخلافة^١ . ثم يضيف بشأن موقف معاویه منه : " بعد أن داراه فأعیاه ، فلما يئس منه ومن ترغیبه او ترهیبه ضيق عليه ثم أقصاه^٢ .

ولعل مثل هذا الموقف يحتاج الى توسيع لا يتطابق مع نظرة معاویه
الى الخارجين على النظام . ولو عدنا الى الرواية التاريخية لنجد فيها ما
يشير الى "مداراة" والي الشام لابن سبأ ، او الى يأس الأول من "ترغيب"
الثاني قبل اقصائه ، إذ جاءت على هذا النحو : "فلم يقدر (ابن سبأ)
على ما يريد عند أحد من اهل الشام ، فانخرجوه حتى اتى مصر" .

وإذ يكتفي أمين بهذا القدر من قضية ابن سباء ، فإنه ينصرف بعد ذلك إلى تتبع أحداث الفتنة ، لافتاً بشكل خاص إلى جهود معاوية في احتواء قبائل الشام ، بما يمهد إلى مشروع دولته التي انطلقت من عباب الأزمة العاصفة بعهد عثمان . وبناءً على ذلك لا يشكل موقف الكاتب من ابن سباء مادة للنقاش ، سوى أنه من المسلمين به و بدوره الدعائي لمصلحة علي و تأكيد وصايتها على الخلافة . وهو لا يختلف في نظرته عن معاصره إبراهيم حسن ، إذ كلاهما ينتمي إلى مدرسة واحدة ،

٢٧١ ص ١ ج ٢ ضحي الاسلام

المكان نفسه

الطبرى ج ٤ ص ٣٤٠

وهي القائمة على الأخذ بركام الروايات التاريخية ، دون الالتفات إلى ميول أصحابها او اكتئاه موقع اللبس فيها ، مع الفارق أن حسن كان يعنيه ، كمؤرخ الجانب الحدثي في الرواية ، فيما كان هاجس امين توظيف الجزء المناسب منها في مادة لاتخلو من افكار ، ربما كانت "جاهزة" لديه من قبل .

ج- أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي .

يبدأ هذا المؤرخ متناقضاً مع نفسه ، فيرى أن "حِلْم" عثمان و "حياءه" شجعوا على الفتنة¹ . ثم يتحول بعد ذلك متقداً بقوة - وإن بصورة غير مباشرة - الخليفة (عثمان) الذي توّكأ على تراث سلفه واستمد منه الوهج خلال النصف الاول الهادئ من عهده : "وسارت الامور في السنوات الاولى من خلافة عثمان ، مدفوعة بالقوة التي بذلها ابن الخطاب وظلّ الضوء الذي اشعله عمر ينير للناس ، ولكن الخليفة الجديد لم يمدد المصباح بالزيت ، فلما أوشك الزيت ان يجف بدأ الظلم يدخل ... (و) بدأت الدولة تهتز وأنخذلت المشكلة تستعصي .، وتقديم

¹ موسوعة التاريخ الإسلامي ج 1 ص ٦٢٥

الناصحون لل الخليفة يطلبون منه الاعتزال و الراحة ، ولكن الخليفة صاح بهم قائلاً: كيف اخلع قميصاً يسبنيه الله^١ .

وليس الغرض هنا الدخول في تفاصيل الفتنه ، وإنما الذي استوقفنا هو ذلك الخلل في منهج المؤرخ شلي الذي تخونه الحبكة فيوغل في التناقض ، وإذا بالثورة ليست من محصلات الفترة الثانية من خلافة عثمان أي بعد ان جف الزيت من المصباح حسب تعبيره، وإنما تصبح كامنة في النفوس منذ عهد الخليفة عمر . هذا ما ينضح به قوله على الأقل حين يتابع تقويمه للمرحلة : " وليس معنى هذا أن أعمال عثمان التي سببت حنق الناس و غضبهم ، لم تظهر الا بعد ست سنوات من حكمه ؛ لا ، فقد ظهرت في اللحظات الاولى ، ولكنها كانت اشبه بالمرض يدب في الجسم السليم فيقاومه الجسم^٢ " .

وهكذا بدلاً من توضيح الصورة ، إذا بالأخرية تحجبها الغيم آخذة معها التفاصيل المعروفة ، على نحو ما اورده المؤرخ شلي عن تقدم "الناصحين" لل الخليفة طالبين منه التنازل عن الحكم . ذلك أن هؤلاء لم تراودهم هذه الفكرة التي جاءت وليدة التطورات الاخيرة بعد الحصار لدار عثمان . فهل كان علي الاكثر " نصحاً" لل الخليفة ، من خاطبه بهذا

^١ المكان نفسه

^٢ المكان نفسه

الامر ؟ هذا ما لم تشر اليه مطلقاً الروايات التاريخية. وعلى العكس من ذلك كان من اهدافه الاساسية (علي) إبان تدخله في الأزمة ، تفادي الوصول الى هذا الخيار ، حرصاً منه على موقع الخلافة التي ستصبح - لوحده ذلك - تحت رحمة المغامرين و الطامحين الى النفوذ . و المؤرخ شلي لم ينفي هذا الواقع ، معترفاً في الوقت نفسه أن عثمان قد تورط في الخط الذي سار فيه ، و بدا فاقداً القدرة على الحوار الفعلي مع الجماعة الاسلامية ، بل ومتبرماً من توسط عليّ بينه و بين الشائرين. يقول هذا المؤرخ : "وكان عليّ كلما اشتكي الناس اليه أمر عثمان ، أرسل ابنته الحسن اليه . فلما اكثر عليّ عليه قال له عثمان : إن اباك يرى أن احداً لا يعلم ما يعلم ، و نحن اعلم بما نفعل فكّف عنا ، فلم يبعث عليّ ابنته في شيء بعد ذلك" ^١ .

و على الرغم من هذه الاجواء التي ينشرها المؤرخ شلي وما ساد فيها من نقمه على سياسة الخليفة و تحفز للتمرد عليه ، فإنه لا يتردد في تحرير هذه الموجة لرجل لم نر له مكاناً فيها من قبل ، وهو عبد الله بن سبا . افلا يسقط مرة أخرى في شرك التناقض ؟ قد لا يجد صعوبة في اكتشاف ذلك ، لاسيما بعد انتقاله من دون مقدمات الى الحديث عن الدور

^١ المكان نفسه . انظر ابن عبد ربہ ، العقد الفريد ج ٤٤ ص ٢٠٨

القيادي البارز لهذا الرجل ، فيقول: " واشتعلت الثورة ضد عثمان ، وبدأ منظموها في الكوفة و البصرة و مصر يعلنون ما كانوا من قبل يضمرون ، و ظهر مع الثنرين اعلام من الصحابة انكروا بعض تصرفات عثمان ، فأسرع ابن سبأ ، وهو الزعيم الحقيقي للثورة ، فأجتذبهم او اجتذب آراءهم اليه لقوى بهم حجته و ترجح كفته ، ومن هؤلاء الصحابة : ابو ذر الغفارى و عمار ابن ياسر و عبد الله بن مسعود^١ ثم يضيف في هذا السياق قائلاً : " و عبد الله بن سبأ هو الشخص الذي نقل الثورة من الكلام الى العمل ، و لم يكن ابن سبأ مخلصاً في حركته ، فقد كان يهودياً ادعى انه دخل الاسلام و لم يكن يضم ل الاسلام و لا للمسلمين خيراً ، فانتهز هذه الفرصة ليشعل الفتنة و ينزل بالعالم الاسلامي ناراً ظلت متأججة عشرات السنين^٢ .

وهكذا يمضي المؤرخ شلبي في اسناد هذا الدور البارز لابن سبأ الذي انحترق - كما صوره - صفوف الصحابة و شدّهم الى افكاره و الى زعامته ، وهو اليهودي المدعى للإسلام . كما يضفي على حركته نكهة " فارسية " عندما يقوم (ابن سبأ) بالترويج لقضية علي و وصفه بأنه " خاتم

^١ المراجع نفسه ج ١ ص ٦٢٥ - ٦٢٦

^٢ المراجع نفسه ج ١ ص ٦٢٦

الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء^١ ، انطلاقاً من تأثره-حسب رأي المؤرخ - بالفكر الفارسي في موطنه الأصلي باليمن^٢ التي كان يحكمها عشيه الاسلام "الأبناء" الفرس . أما هدفه (ابن سبأ) فهو ضرب الاسلام من خلال الدعوة لشخصية تتمتع بالثقة (علي) ، وجمع العدد الأكبر من المسلمين حوله. فلما رفض علي الانسياق في الثورة على عثمان وتصدى - حسب المؤرخ شلي - "للمجموع الساخطه وشرح لهم أن أي اعتداء على الخليفة هو اضعاف للإسلام و تفرقة للمسلمين ... ادرك ابن سبأ أنه هُزم وأن الفرصة التي عمل لها سنوات أوشكت ان تضيع ، ولذلك اعمل الحيلة و دبر أمره ، فيروى أن الشائرين حال عودتهم رأوا رجلاً أسود يمشي على بعله منهم و أنه يحاول أن يختفي عنهم، فشكوا في أمره، فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه، فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان، وفي الخطاب أمر لوالى مصر أن يقتل هؤلاء الشائرين^٣"

ومن اللافت أن شلي يقتبس هذه المعلومات عن المستشرق الالماني بروكلمان^٤ ، في حين ان الطبرى الذى ذكر تفاصيلها انطلاقاً من روایة

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٢٧

^٢ المكان نفسه

^٣ المكان نفسه

^٤ المكان نفسه

سيف ، لم يشر الى هذا "الرجل الأسود" الذي "اكتشف" فيه المؤرخ شخصية ابن سبأ (ابن السوداء في المصادر). فقد جاء في الرواية : " ثم رجع المصريون راضين فبینا هم في الطريق إذا براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم ، ثم يرجع اليهم ... قالوا له مالك؟ إن لك لأمراً ! ما شأنك ؟ قال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر ، ففتشوه ، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان ، عليه خاتمه إلى عامله بمصر أن يصلبهم أو يقتلهم" ^١ .. وهكذا يتصرف شلبي بالرواية ويخضعها لمصلحة ذلك الدور "الاسطوري" الذي قام به السبئي "الخارق" ، في قيادة الجموع الساخطة على عثمان. فهو ليس موجهاً عنده للثورة او متقدراً لها فقط، وإنما هو حاضر كذلك في تفاصيل خطوطها ومنفذ في الوقت نفسه لدقائق مهماتها . و من الطريف ايضاً انه - اي الشلبي - في احد الهرامش ، و في محاولة للتحفيف من اندفاعه في تضليل الدور الذي تبواه ابن سبأ ، يلجمأ الى الفصل بين " الشيعة الحقيقين وبين مدعى التشيع" ^٢ الذين انحرف بهم الداعية اليهودي . وفي هذا المكان يتعرض لكتاب مرتضى العسكري وما ذكره من اختلاق لرواية سيف ، الا أنه يتفادى الرد المباشر عليه ، وينتهي الى ترسیخ اعتقاده بوجود ابن سبأ ، مكتفياً بمناقشة الاسم الذي حمله

^١ الطيري ج ٤ ص ٣٥٥

^٢ موسوعة التاريخ الاسلامي ج ١ ص ٦٢٦

الآخر إذا كان صحيحاً أو مفتعلًا ، وكان العسكري لا يعني سوى هذه المسألة بالذات . فهو يقول بشيء من الحسم في هذا الصدد : " فأنا أقرر هنا أن ضالة بدأت هذا الشوط هي عبد الله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم ، وأن مریدین کثیرین أخذوا عنه هذا الضلال و ساروا فيه أزمنة طويلة و أشواطاً واسعة . فالاسم لا يهمنا ولكن يهمنا أن شخصاً قام بالدور الذي نسب إلى عبد الله بن سبأ وأن اشخاصاً قاموا بالادوار التي تنسب للسبئين و لأعداء الشيعة و أعداء الإسلام " ¹ .

د - عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن ابي طالب .

من المعروف أن هذا الكتاب الذي استمد شهرته من أن صاحبه شيخ أزهري ، و في نفس الوقت معجب حتى الأفتتان بشخصية علي ، لا يمثل دراسة علمية موثقة ، وإنما هو أقرب إلى الرواية التاريخية ، حيث تتوفر عناصرها الفنية الأساسية أو الكثير منها فيه ، دون أن ننسى الأسلوب الشائق الذي يرتفع أحياناً إلى مستوى الجملة الشعرية الآلية . و في ضوء ذلك لا تصطدم شخصية ابن سبأ بأي عائق ، للدخول في نسيج

¹ المكان نفسه (هامش <1>)

السياق على مساحة جزء من الكتاب، و سرعان ما تفرض نفسها كشخصية بارزة بين أبطال "الرواية" .

ولكن "الشيخ" إذ يعيد صياغة النص التاريخي بأسلوبه الخاص ، تفاديًّا لما يُعَكِّر الانسياب فيه ، فأنه يلتزم بجوهر النص و لا ينحرف عنه، على نحوٍ تصبح التفاصيل كاملة في حوزته ، كذلك الأجراء المحيطة بالحدث واضحة لا يشوبها غموض . وفي البصرة يكون "المشهد" الأول حيث "بقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر الاصلاح المنشود" أجمل ففي هذه الناحية من الدولة الاسلامية ظهرت أقوى الحركات الهدامة في تاريخ الاسلام . جاءت كالسموم على يد اسود من أحدى الدولات التي أنفت حتى في ايام النبي أن تخضع لحكم البلاد المقدسة و حاولت أن تخلع سعادتها لو لا أن قهرها أبن أبي طالب على الطاعه ... من اليمن جاءت ، وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبا سالت كالسم . وانطلق بها الرجل الى الحجاز يَهْمِّ أن يَثْهَأ ، لو لا أن وجهه ذكاؤه الى بلد أكثر تقبلاً للدعوة من مهد الدولة و أبعد عن أيدي الخليفة و أعوانه بالمدینه أن تُمْتَدُ اليه . فقد كان ابن سبا خبيراً بمنفوس الناس ، عالماً بنواحي

الضعف التي يستطيع أن ينفذ منها اليهم ، ملماً بأحوال البلاد التي انتظمها الاسلام تمام الالمام فعرف أي تربة من بينها يمكن ان تنمو فيها بذوره^١ .

ولعل "الشيخ" ، وإن تمرّد على نهج سربه متفرداً بذكر النبي من دون الرمز المأثور المضاف - خصوصاً لدى الشيوخ - إلى اسمه ، فإنه يلتزم بروح النص التاريخي ، متأثراً هذه المرة بطريقة أقرانه عندما يسوق الحدث على انه حقيقة لا يشوبها ريب . وإذا كان من غريزة المؤرخ ، ربط الواقع ببعضها ، فإن الشيخ الذي توخي دائماً إبراز شخصيته - محور الموضوع ، ربما تورّط في زج على في هذا السياق ، إذ على المؤرخ حينئذ أن يتساءل إذا كان عبد الله بن سبأ قد عرف شيئاً عنه (علي) ، خلال المهمة التي قام بها لحمل اليمنيين (قوم ابن سبأ) على الطاعة ، مما دفع الأخير إلى التأثر به ، ومن ثم الدعوة له كوصي للنبي بعد فترة قصيرة ؟ ولكن "الشيخ" سرعان ما يتعد عن هذا الظن ، ليؤكّد أنه غير مأْخوذ بفضول المؤرخ ، فيتابع محاولة احتراق الداعي - الذي "خلع ثياب دينه القديم وأظهر الدخول في الاسلام"^٢ - بجتمع المدينين و لكن "دعوته - والكلام للشيخ - إن جازت على بعض النفوس في الحجاز ، فلن تكون لها مطلقاً حياة لو أن ابن أبي طالب فتح شفتيه ، وما كان له أن يؤمن

^١ الامام علي ج ١ ص ٦٠ - ٦١

^٢ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٢

عليه السكوت ، فضلاً عن موافقته و رضاه ، لأن خلقه الكريم حري بأن يشيره على الدعوة و يدفعه لحربها باللسان و بكل سلاح ، وإن كانت في ظاهرها قد جاءت لتضع في يديه السلطان^١ .

وهكذا تصبح البصرة المنطلق الفعلى لإبن سباء ، يشجعه على ذلك وجود وال لا ينظر اليه أهلها بارتياح وهو عبد الله بن عامر . فكانت أرضاً خصبة - برأي الشيخ - لبث افكاره المدamaه " عازماً امره على تقويض بنيان الدولة الاسلامية"^٢ . وسرت دعوته كالسحر بين المسلمين في البصرة ، فكاد الزمام يفلت من يد الوالي الذي تنبه أخيراً لخطورته ، ولم يجد بدأً من نفيه والتخلص من هذا "الوباء" الذي انتشر سريعاً في ولايته . و "المشهد" الثاني في الكوفة جاء مقتضياً ، لأن واليها (سعيد بن العاص) وقد اتعظ بتجربة البصرة ، لم يلبث ان طرده (إبن سباء) ، ليمضي الاخير " بوفاضه المليء بالخبايث الى الشام ، الأرض التي احتواها معاوية في قبضته"^٣ . فما كاد يباشر التحرك حتى كان خارج الولايه المهدئه ، آخذاً طريقة الى مصر . و "المشهد" الثالث الاساسي كان هناك ، حيث - و الكلام للشيخ - " انتهى المطاف بالسببية ، فخط

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٣

^٢ المكان نفسه

^٣ المرجع نفسه ج ١ ص ٧٢

شيخهم رحاله بمصر ، وأخذت دعوته تنمو مع الزمن وتهيمن على النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الاسلامية ، تنتشر انتشاراً نامياً على يد الرسل و الرسائل وتتمد سلطانها في البلاد كما تمتد أذرع الاخبطوط ^١.

وعلى هذا النحو تنتهي السببية فصولاً في كتاب الشيخ عبد المقصود عن الامام علي ، متبعاً بدقة مسارها والمحطات الاساسية فيه ، كما وردت تماماً في رواية سيف في تاريخ الطبرى . فهو يعرض لها كحركة "هذا" تستهدف تقويض الاسلام و دولته ، وفي نفس الوقت يحرص على الفصل بينها وبين علي ، وإن كانت تعمل له و تكرس افكارها لمصلحته . على ان عبد المقصود ربما جنح الى المبالغة في تصوير الاهالة التي اصبحت لها في ولايات الخلافة ، خصوصاً في البصرة التي اثبتت بعد وقت قصير أنها خارج هذا التصور ، بدليل رفعها راية العصيان مبكراً على علي . كما ان ما ورد من تهافت الناس على هذه الدعوة ، لا تعبر عنه مطلقاً الرواية التاريخية ، هذا إن لم يكن متناقضاً معها ^٢.

وهذا يعني أن عبد المقصود كان يحمل النص التاريخي أكثر مما يستطيعه ، وذلك استجابةً لمنهج الكتاب - الرواية ، وما يكتشفه من صخب ملائم للمناخ "الدرامي" فيه . وهذا الكتاب لا يندرج حكماً

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٧٤

^٢ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٦ - ٣٢٧

في مصاف الدراسات التاريخية التي تقوم على تحليل الرواية وربط عناصرها بصورة دقيقة ، بما يسهل الوصول إلى النتائج العلمية المقنعة . ولن تكون حركة ابن سينا خارج هذا التقويم ، خصوصاً وأن الكاتب لم يبحث في أسبابها ، بما يتعدى مضمون الرواية التي جاءت طافية على سطح الأحداث ولم تكن في صميمها بالفعل . كذلك لم يتطرق إلى نتائجها التي ظلت بدورها غامضة ، على الرغم مما ختم به القول عن الحركة السنية ، بأنها امتدت في البلاد امتداد "ذراع الانطيوط" .

هـ - عباس محمود العقاد : عقريمة عثمان .

هذا الكاتب ، وهو مصنف بين افذاذ عصره من كبار الأدباء والمفكرين ، دخل حلبة الدراسات التاريخية وترك آثاراً "خالدة" فيما كتبه من سير الخلفاء ، وبعض قادة الإسلام ، وهي التي اندرجت تحت عنوان "العقريات". وكان ذلك من سمات هذه المرحلة إذ توزعت اهتمامات الكاتب بين الأدب و النقد و الفلسفة ، دون أن تنسى عن التاريخ الذي ر بما كان الخوض فيه ، منطلاقاً من الحافز الديني إلى جانب

الرغبة في اعادة قراءة احداثه بصورة أكثر عقلانية مما كان لدى الألاف . ولكن اللافت أن المنهج ، وإن اختلف قليلاً لدى كتاب المرحلة ، فإنه ظل محاولاً بروية الأديب و لم يلتزم بقوانين البحث التاريخي و شروطه . نستثنى من بين هؤلاء طه حسين الذي ربما كان لدراسته (العليا) عن ابن خلدون و المغربي تأثير على منهجه ، فبذا حريصاً على إبراز الرواية و توثيقها ، و التوغل فيها أحياناً كثيرة بنظرية المؤرخ المماحة ووعيه المرهف ، لتجيء أعماله قراءة جديدة بالفعل لبعض المخطات الاساسية في التاريخ سواء في الاسلام أو ما قبله .

"تحت عنوان " و بعد الصدمة " يدلل العقاد الى موضوع " الفتنة " التي ظهر في ثناياها عبد الله بن سبأ ، ولكن في منهاجه يميل الى الاختصار و يؤثر الاهتمام بمعانى الأحداث من دون تفاصيلها التي لا غنى للمؤرخ عن الابحار فيها للقيام بدوره . فالدلالة هي ما يعنيه وليس الحدث بعينه ، و لذلك يسارع الى القول مفسراً ما جرى في ذلك الوقت على هذا النحو : "وليست الصدمة العنيفة بالحائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة و تحيص اسبابها و عواملها و تبعات المسؤولين عنها ، فالصعب بالنسبة الى اثبات اسبابها و عواملها و تبعاتها كل منها الى اسبابها و عواملها . و يتكلم عنهمما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متعدد الاسباب و العوامل ، هذان الحادثان هما : التطور السياسي و مقتل عثمان .

وأسباب هذا لا تكفي لتعليق ذاك ، و ليس من الحتم أن تؤدي إليه . و قد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء و أثره في هذه الفترة . فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذاك لأنهم اعتقادوا أن الانقلاب السياسي ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو انهم فصلوا بين الأسباب في كلٍّيَّهما لأمكن تقدير التبعية والاستطاعة في عمل كل عامل و دسية كلٍّيَّها في المؤامرة . فإنَّ ابنَ السوداء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسي و غيره من هم أعظم منه شأنًا و اشد منه خطراً أهون من إحداث ذلك التطور كله ، لأنَّه يرجع إلى أسباب متفرقة عميقه القرار ، كثيرة التشعيب لا تضطلع بها قدرة رجل واحد و لاعده رجال متآلين متواطئين . و لكن مقتل عثمان شيء آخر غير التطور السياسي ، و في وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترب بيده و أيدي من يستمعون لتحريضه و دسيسته ، لأنَّه في حقيقته " مشاغبة" من مشاغبات الدهماء التي لا تعجز عن امثال هذه الأفاعيل " .

والعقد هنا يملك النظرة الثاقبة للمؤرخ ، وإن لم تكن على المساحة المباشرة للرواية التاريخية . فهو يخالف المؤرخين أو بعضهم ، فيربط

^١ عبرية عثمان ص ٣٢

المتغيرات في دولة الاسلام بمقتل عثمان الذي جاء نتيجة مؤامره محبوكة تفاصيلها حسب رأيه . و إذا كان من الصعب فصل حادث عن آخر ، لاسيما خلال تلك الفترة التي انعكست مؤثراتها بصورة مباشرة على المجتمع الاسلامي ، فإن العقاد كما ييلو يوسم هنا - وإن بصورة غير مباشرة - لتهميش دور ابن سبا و حصره بالتحريض على مقتل عثمان، من دون أن تكون له مفاعيل أخرى على " التطور السياسي" الذي كان أبعد - برأيه - من هذة الحادثة العابرة . وعلى الرغم مما بنطوي عليه هذا التحليل من عمق ، يتعدى الدور المحدود للداعية السبئي الى معطيات أكثر جذرية في تطورات المرحله و ما بعدها ، فإن العقاد لا يلقي ما يكفي من الضوء لإزالة اللبس الذي ربما تفاقم بعد مغادرة هذه الصورة المركبة . وهذا المنحى لا يتصل به موضوعنا الأساسي ، وهو بالتالي مفصول عن مقتل عثمان الذي يعتبره الكاتب " شيئاً آخر " غير متصل بالجذور . ولا يعنيه من هذا المنطلق أن يكون عبد الله بن سبا ، شخصية حقيقية أم وهمية ، إذ يقلل من شأنه في الأساس ، خلافاً للشيخ عبد المقصود الذي يعطي له حجماً لم ينله في الرواية التاريخية أو الدراسات التي راكمت عليها . ولكن في النهاية يمكن ملاحظة استنتاجين هامين في بحثه (العقاد) :

١- عدم الانسياق وراء الاله التي أعطيت لابن سباً من جانب معظم المؤرخين والكتاب ، فلم ت تعد من منظوره هذه المسألة "حادثة محلية قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء" .^١

٢- بناء على ذلك فإن مقتل عثمان ما كان ليحدث لو توفر القليل من الحماية العسكرية للخليفة، متهمًا بصورة غير مباشرة والي الشام (معاوية) بالقصير في هذه المسألة (إن عثمان ما كان يقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاة الامور ، وإن هذه الجمهرة التي اقتحمت داره واجترأت عليه بالسلاح ما كانت لتقتل والياً من ولاته - كمعاويه بن أبي سفيان مثلاً - لو أنها هجمت على داره وبين حرسه واجناده) .^٢

^١ عبرية عثمان ص ٢٢

^٢ المكان نفسه

و - فلهوزن و فان فلوتن

هذا ما كان من امر الدراسات العربية الحديثة و المعاصرة المسلمة .
بالدور الذي قام به عبد الله بن سبأ في سياق الفتنة الشهيرة ، وقد
جاءت، على التفاوت في حجم المادة التاريخية ، مقتضبه بشكل عام
و تفتقد الى العمق و النزرة التحليلية الثاقبة . ولعل العقاد وحده خرج من
حصار الرواية و قارب الاسباب الموضوعية للفتنة، بمعنى عن الدور المنسوب
للداعية السبئي .

أما المستشرقون ، فكانوا اقل حماسة للخوض في هذه القضية ، ربما
لأنهم وجدوا في الرواية التاريخية منحي لا يتفق مع نزعتهم العلمية
واستنتاجاتهم التي تقوم على المقارنة . ومن اللافت أن يوليوس فلهوزن ،
المستشرق الالماني الشهير ، تجاهلها تماماً في كتابه " تاريخ الدولة العربية" ،
حيث تدرج فيه مفصلةً أحداث الفتنة . وقد سجل مترجمه^١ ملاحظة
هادئة عليه في هذا السبيل ، فأورد في الهاامش ما نصه : " و المؤلف أغفل
ذكر الدور الذي كان لعبد الله بن سبأ (ابن السوداء) في اثارة الفتنة
أولاً و تنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأقصى . ومهما قيل في
دور ابن سبأ فهو مذكور في كتب التاريخ و لا يصح إغفاله^٢ .

^١ عبد الحادي أبو ريده

^٢ انظر الكتاب ص ٤٨ هامش <١>

على أن فلهوزن تدارك هذا "الاغفال" في كتابة الآخر (الخوارج والشيعه) ، إلا أنه لم يعد إلى منطلقات السبئية في عهد عثمان ، بل أشار إليها في سياق الحديث عن حركة المختار الثقافي في الكوفة ، خصوصاً إلى العلاقة الوثيقة التي ربطت الأخير بالموالي (الفرس) . و تكتسب اشارته أهميتها في نفيه أية علاقة بين التشيع و المصادر الخارجية ، سواء كانت عبر الداعية السبئي (اليهودي) ، أم عبر المؤثرات الفارسية (الايرانية) التي نسبها البعض إلى التشيع فيما بعد . يقول : فلهوزن : "أما آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين فهو لا سبيل إلى الشك فيه ، وأما كون هذه الآراء قد انبعشت من الإيرانيين ، فليست تلك الملاعنة دليلاً عليه ، بل أن الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك ، إذ تقول أن التشيع الواضح الصريح كان قائماً أولاً في الدوائر العربية ، ثم انتقل إلى الموالي ، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر" ^١ . أما السبئية فأن فلهوزن يعتبرها إطاراً للكيسانية التي نسب الالتزام بها للمختار ، رابطاً بينها وبين الهوية القديمة لابن سباء ولكن من دون التوقف طويلاً عند هذه المسألة ، مصريحاً بأنه لا يغيرها " من الأهمية أكثر مما تستحق" ^٢ . ولعله - أي فلهوزن - كان أكثر توغلاً في المنحى الفلسفى للسبئية ، فخاض في

^١ الخوارج و الشيعة ص ١٦٩

^٢ المرجع نفسه ١٧١

موضوعة "الرجعة"^١، ومؤثرات هذه الفكرة في العهد الأول من الخلافة العباسية.

ولا يتجاوز المستشرق الهولندي فان فلوتن هذا الاطار في موضوعة السببية ، فيتناولها كفرقة دينية لها مشروعها السياسي الذي عَبَر عنـه أولاً المختار الثقافي . على أنه يعارض رأي فلهوزن بأن السببية "يُسمون أيضا الكيسانية"^٢ ويرى أن مسافة "تفصل ما بين العقدين ... فإذا كانت الأولى تمجد الروح الالهية في (علي) وتجعل له نصيباً منها ، فإن الثانية اعتبرته رمزاً للمعرفة الالهية "^٣

وليس هدفنا بالطبع البحث في "العقيدة" السببية وملابساتها ، ولكن اوردنا شيئاً من ذلك لإبراز المنهج الذي تناول من خلاله المستشرقون هذه المسألة . فكلاهما جاء متفقاً على إهمال العنصر التاريخي فيها ، لاسيما فلهوزن الذي لم يشاً التعرض لها برغم احتكاك موضوعه المباشر معها . وكما تبيّن فقد نوقشت السببية لدى الاثنين في سياق حركة الثقافي ، دون أن يعود كلاهما إلى جذورها في عهد عثمان.

^١ المرجع نفسه ص ١٧٤

^٢ المرجع نفسه ص ١٦٨

^٣ السيطرة العربية . ترجمة ابراهيم بيضون ص ٨٠

وإذ نكتفي بما أورده كل من فلهرزن وفان فلوتن عن السبئية ، وهما من أوائل المهتمين بتاريخ المرحله الأولى من الاسلام ، فإن ما جاء في دراسات المستشرقين الآخرين ، لم يضف جديداً بارزاً اليها . وقد انطلقت جميعها من الرواية نفسها، وما انطوت عليه يندرج في السياق الفكري وليس التاريخي الذي تطابق عموماً لدى المستشرقين ، مع النظرة التي سادت معظم الدراسات العربية الى هذه المسألة .

المشكّون

أ- طه حسين : الفتنه الكبرى

إن موضوع السبئية ، وكما أشرنا سابقاً ، لا يمكن بحثه خارج نطاق المنهج الذي تبقى له على صعيد الدراسات التاريخية مقاييسه و ضوابطه ، ما لا يحده على المستوى نفسه في فروع العلوم الإنسانية الأخرى . وقد ترافق تطور المنهج في الواقع مع انكفاء السبئية في الدراسات المعاصرة وتراجعها أحياناً إلى حد الاختفاء أو التهميش ، وذلك بناء على ضعف الرواية مصدر المعلومة ، فضلاً عن ثغرات لا تخفي على الكاتب أو المؤرخ ، المنطلق من نظره ناقدة و موضوعية إلى احداث تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ الإسلام .

و لعل طه حسين الذي عاد من فرنسا في مطلع القرن ، متأثراً بمناهج الكتاب الأوروبيين ، و متعمقاً في فكر ابن خلدون ، مما تجلّى على المخصوص في كتابه "الشعر الجاهلي" الذي أثار ضجة مدوّية ، لا يخترقه النمط المأثور في الكتابة الأدبية و التاريخية ، كان مؤهلاً لإعادة النظر في قراءة التراث بما يتلاءم و التفكير العلمي الهاديء و الرصين . فكما كان رائداً من هذا المنظور في دراسته الجريئة عن التراث الشعري للعرب قبل

الاسلام ، و الذي تصدى له المستزمتون بحرب شعواء ، كان كذلك في دراسته المتميزة عن " الفتنه الكبرى " التي تناولها في ضوء هذا المنهج الجديد ، ملامساً عمق المسائل ، ومنها الموضوع السبئية التي كان اول من أثار حوطها الشبهة و الارتياب . فأسس لاتجاه جديد في حركة البحث العلمي ، يصبح معه الشك وسيلة إيجابيه لتفسير التاريخ و ليس عنصر إعاقة أو تشويش له .

ومن الواضح بدأية أن شخصية ابن سينا لم تأخذ مكانها الطبيعي في سياق بحثه ، بدليل انه كرس لها سياقاً خاصاً ، لصعوبة اندماجها من منظوره في حركة المسار التاريخي للمرحلة . تُعرف الى ذلك بغير صعوبه في مستهل الحديث عنها ، إذ أن الكاتب لا يتعامل مع الرواية كحقيقة ، و إنما كواحدة مما هو معروف بالقصص التاريخي ، دون أن يرى ضرورة اسنادها الى مصدرها ، مكتفياً فقط باستخدام عبارة " قال الرواية " أو " قالوا " ^١ ، الاكثر ملاءمة لطبيعة منهجه .

يقول طه حسين : " وهناك قصة اكبر الرواية المتأخرن من شأنها وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحاذين مصدرأ لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقه بين

^١ الفتنه الكبرى ١٣٨

المسلمين لم تُمْعَأ اثارها بعد ، وهي قصة عبد الله بن سباً الذي يُعرف بابن السوداء . قال الرواية : كان عبد الله بن سباً يهودياً من أهل صنعاء حبشي الأُم ، فأسلم زمان عثمان ثم جعل يتنقل في الامصار يكيد للخليفة و يغري الناس عليه و يذيع في الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين و السياسة جمِيعاً ^١ .

بهذه المقدمة يَتَهَدَّدُ الكاتب لشخصية ابن سبا ، منطلقاً من الرواية التاريخية المعروفة ب شأنها ، و مضيفاً منذ البداية جواً تبعق فيه رائحة الشك قبل أن يتبع بالأنساب ذاته بحوال السبئي على الامصار ، حيث التقى أبا ذرَّ الغفاري و آخرين من الصحابة في الشام ، متقدماً عثمان و متقدماً برجعة الرسول ووصاية علي . ثم يضيف الكاتب متعمداً اغفال الرواية، فينسب القول إلى " بعضهم " أن ابن سبا " أحكم كيده إحكاماً، فنظم في الامصار جماعات خفية تتستر بالكيد و تتداعى فيما بينها إلى الفتنة، حتى إذا تهيأت لها الأمور وثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج و الحصار و قتل الإمام" ^٢ .

و ينتقل الكاتب بعد ذلك من الحديث كمادة خبرية إلى تفكيره والوقوف نتيجة لذلك على عنصر المبالغة الواضحة فيه ، دون أن يخفى

^١ المكان نفسه ص ١٣٨

^٢ المكان نفسه

استغرابه من إهمال المصادر الأساسية لهذه الشخصية فيقول : "ويختل إلى أن الذين يكثرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد ، يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ اسرافاً شديداً . و أول ما نلاحظه أنا لابن سبأ ذكرأفي المصادر المهمه فلم يذكره ابن سعد ... و لم يذكره البلاذري ... و ذكره الطبرى عن سيف بن عمر ، و عنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر" .

لقد شكلت هذه الإضاءه على شخصية ابن سبأ ، مدخلاً مهماً إلى عالم هذا " الداعيه " الذي " أخترق " بحراته الغربيه مسرح الاسلام وكأنه من رواده و سابقيه الأوائل ، خصوصاً في الإشارة الرائدة إلى تفرد الاخباري سيف بن عمر في روايته عنها ، دون أن يقتنع بها المؤرخون الكبار ، باستثناء الطبرى الذي وجد لها متسعاً بين رواياته الغزيرة . ومن هذاالباب يلتج طه حسين بشقة إلى هذا الموضوع ، ليس مشككاً فقط ، ولكن نافياً أن يكون مثل هذه الشخصية - وإن وُجِدَت - ذلك التأثير في تطورات المرحلة :

" ولست أدرى إذا كان لإبن سبأ خطر في أيام عثمان أم لم يكن ، ولكنني أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان

^١ المرجع نفسه ص ١٣٢

المسلمين في عصر عثمان ليبعث بعقولهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ، ولم يكدر يسلم حتى أنتدب لنشر الفتنه وإذاعة الكيد في جميع الأقطار^١

و هذا منتهى التحليل الموضوعي للدور المنسوب لإبن سبأ ، و الذي ألمحنا اليه في القسم الأول من هذه الدراسة . فالمؤرخ يعجب في الواقع لتلك الليونه التي أبدتهاها ولادة عثمان في الامصار إزاء التحرك المشبوه لهذا الداعية . وإذا رجعنا الى الرواية التاريخية وما كان من أمر السبئي في البصرة ، فإننا لا نجد في ردّة الفعل من جانب واليها ، ما هو متكافئ مع خطورة حركته ، إذ يأمره فقط بالخروج من البصرة^٢ . كذلك معاوية الذي نحاطبه بهدؤ^٣ ، مما لا يتفق و اسلوبه المعتمد إزاء المشاغبين على الحكم في ذلك الوقت . وقد تنبه طه حسين لهذا الامر ، مستغرباً أن يقدم هذان الواليان بما عُرف عنهم من شدة على المعارضة ، على التعامل بمثل هذا الاسلوب مع " الرجل الخطير " ، فقال معلقاً على ذلك :

" ولو قد أخذ عبد الله بن عامر أو معاوية هذا الطارئ الذي كان يهودياً فلم يسلم الاكائد المسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه الى

^١ المكان نفسه

^٢ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٧

^٣ المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٨٣

عثمان ، و لبطش به أحدهما أو كلاهما . ولو قد أخذه عبد الله بن سعد ابن أبي سرح (والي مصر) ، لما أغاره من العقوبة التي كاد ينزلها بالمحدين (محمد بن أبي بكر و محمد بن أبي حذيفة) لولا حوفه من عثمان . والذي يكتب الى عثمان يستأذنه في البطش بابن أبي بكر و ابن أبي حذيفة و عمّار بن ياسر في بعض الروايات ، خليق الا يغفر من عقوبته رجالاً من أهل الكتاب قد اتخذ الاسلام وسيلة لإثارة الفرقة بين المسلمين و تشكيكهم في إمامهم بل في دينهم كله . ولم يكن أيسر من أن يتبع الولاة هذا الطارئ ومن أن يأخذوه ويعاقبوا ، وهم كانوا مهرة في تتبع المعارضين و إخراجهم من ديارهم و ارسالهم الى معاوية أو الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^١ (أحد قادة جيش الشام) .

ويضي طه حسين بعيداً في تفكيك الرواية " السيفية " ليتوقف عند نقطة مهمة ايضاً ، تعارض و المنطق التاريخي ، وهي الخاصة بالعلاقة بين عبد الله بن سبأ و أبي ذر الغفاري و التي تجعل الأخير من أتباع الأول ومن السائرين على هديه ، فيقول : " ومن أغرب ما يُرى أمر عبد الله بن سبأ ، أنه هو الذي لقَن أبا ذرَ نقد معاوية فيما كان يقول من أن المال هو مال الله ، وعلمه أن الصواب أن يقولن أن المال هو مال المسلمين^٢ .

^١ الفتنه الكبيرى ص ١٣٢

^٢ أنظر الرواية في الطيري ج ٤ ص ٢٨٣

ومن هذا التلقين إلى أن يقال إنه هو الذي لقّن أبا ذرّ مذهبـ كله في نقد الأمـراء و الأـغـنيـاء و تـبـشـيرـ الـكـانـزـينـ لـلـذـهـبـ وـ الـفـضـهـ عـكـاوـ منـ النـارـ تـكـوـيـ جـبـاهـهـمـ وـ ظـهـورـهـمـ وـ ماـ أـعـرـفـ إـسـرـافـ يـشـبـهـ هـذـاـ الـاسـرـافـ ،ـ فـمـاـ كـانـ أـبـوـ ذـرـ فيـ حـاجـةـ إـلـىـ طـارـئـ مـُـحـدـثـ فـيـ الـاسـلـامـ لـيـعـلـمـهـ أـنـ لـلـفـقـرـاءـ عـلـىـ الـاـغـنـيـاءـ حـقـوقـاـ ،ـ وـ أـنـ اللـهـ يـشـرـرـ الـدـيـنـ يـكـنـزـونـ الـذـهـبـ وـ الـفـضـةـ وـ لـاـ يـنـفـقـونـهـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ بـعـذـابـ الـيـمـ ،ـ وـ أـنـ الـمـالـ الـذـيـ يـكـسـبـ الـمـسـلـمـونـ حـينـ يـظـهـرـونـ عـلـىـ الـعـدـوـ ،ـ أـوـ الـذـيـ يـوـدـيـهـ الـمـسـلـمـونـ إـلـىـ بـيـتـ الـمـالـ زـكـاـةـأـوـ خـرـاجـاـ ،ـ هـوـ مـالـ الـمـسـلـمـينـ يـجـبـ أـنـ يـضـافـ إـلـيـهـمـ فـيـ الـقـوـلـ وـ أـنـ يـرـدـ عـلـيـهـمـ بـالـفـعـلـ "١" .

ويتابع لافتاً إلى رياضة أبي ذرٍ في الإسلام ، و معايشته القربيه للرسول ، آخذًا التفاصيل عن دعوته وعن تجربته في الحكم :

"لم يكن أبو ذرٌ بحاجه إلى هذا الطارئ ليعلمه الحقائق الأولية من حقائق الإسلام . وابو ذرٌ سبق الأنصار جميعاً وسيق كثيراً جداً من المهاجرين إلى الإسلام ، وهو قد صحب النبي فاطـالـ صـحبـتـهـ ،ـ وـ حـفـظـ القرآنـ فـأـحـسـنـ حـفـظـهـ ،ـ وـ روـيـ الـسـنـةـ فـأـتـقـنـ روـاـيـتـهـ "٢" .

^١ الفتنه الكبيرى ص ١٣٣

^٢ المكان نفسه

ولايكتفي الكاتب بالتصدي النظري لهذه المسألة ، حين يتوجه بالنقد إلى مروجي هذه المعلومة قائلاً : " فالذين يزعمون أن ابن سبأ قد أتصل بأبي ذر فألقى إليه بعض مقاله ، يظلمون أنفسهم و يظلمون أبا ذر و يردون بأبن السوداء إلى مكانة ما كان يطمح أن يرقى إليها " ^١ ، ولكنه يخوض فيها معتمداً على القرائن ، مستحضرأ رد الغفارى على كعب الأحبار و وثوبه عليه ، بعدما سمح الأخير لنفسه بالتدخل " مجهداً " بينه وبين الخليفة عثمان بشأن فريضة الزكاة ^٢ . و يتهمي الكاتب إلى تحليل منطقي للعلاقة بين الاثنين قائلاً :

" فأبو ذر ينكر على كعب الأحبار أن يعلمه دينه ، بل أن يدخل في أمور المسلمين حتى بإبداء الرأي ، مع أن كعب الأحبار ... أبعد عهداً بالاسلام من ابن سبأ و كان محاوراً في المدينة يصبح و يمسي بين اصحاب النبي ، وكان معاشاً لعمر و عثمان ، ثم لا يتخرج (أبو ذر) من أن

^١ المكان نفسه

^٢ يروى الطبرى عن سيف أن أبا ذر دخل على عثمان و عنده كعب الأحبار فقال لعثمان : لا ترضا من الناس بكف الأذى حتى يذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدى الزكاة الا يقتصر عليها - حتى يحسن الى الجيران و الاخوان و يصل القرابات . فقال كعب : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه . فرفع ابو ذر مجحته فضربه فشجه وقال له يا ابن اليهوديه ما أنت وما ها هنا . الطبرى ج ٤ ص ٢٨٤ . انظر طه حسين ، الفتنة الكبرى ص ١٢٣

يتلقى من عبد الله بن سبأ أصلاً من أصول الإسلام و حكماً من احكام القرآن ...^١

إن طه حسين في بحثه لموضوعة ابن سبأ ، كان قارئاً جيداً للتاريخ ، ومسكاً بكلفة المخيوط فيه الرواية، دون أن يدع طرفاً منها يشذ عن الآخر، فجاء هذا البحث متماساً في وحدته وبنائه ، و ذلك في ظل رؤية تحليلية ونقدية ثاقبة ، حصلته من الواقع فيما وقعت فيه جمهرة من المؤرخين الذين كانت قراءات معظمهم مسطحة وجامدة . لقد كانت الثورة على عثمان - برأي الكاتب - محصلة لعدة اسباب ، قد لا يكون محورها السخط على سياسة الخليفة ، بقدر ما هي خاضعة في الأساس للتحولات التي مرت بها دولة الإسلام في أعقاب حركة الفتوح الأولى ، تلك التي فشل عثمان في استيعابها على نحو ما فعله الخليفة السابق، باعتماده معادلة توازنيه شموليه ، أدت إلى الخسارة كثير من التناقضات في عهده . على أن عثماناً بنزعته الفتوحية أطاح تلك المعادلة التي أحدث انهيارها شرحاً كبيراً أخذ يتسع حتى انتهى إلى ما عُرف بالفتنة . فهل كان ذلك كله من انحياز عبد الله بن سبأ الذي لا ينفك طه حسين يدعوه بـ " الطارئ " على هذه الموجة إن صحة وجوده بالفعل ،

^١ الفتنة الكبيرى ص ١٣٣

واصفاً ما قيل حوله في هذا الصدد بأنها "أمور لا تستقيم للعقل ولا تثبت للنقد و لا ينبغي أن تقام عليها امور التاريخ " ^١ .

و هذا التشكيك بشخصية ابن سبأ أو بدوره ، إنما هو نابع من الحقائق و ليس من الاجتهاد فقط ، دون أن يهمل الكاتب مسألة حيوية ، تمس الجانب السلبي في حركة التدوين التاريخي الإسلامي وما تسرّب إليها من روایات لا تتمتع كلها بالثقة ، فيصل بناء على ذلك إلى استنتاج واقعي بقصد هذه الشخصية السبئية قائلاً :

"أكبر الظن ان عبد الله بن سبأ هذا - إن كان ما يُروى عنه صحيحًا - إنما قال ما قال و دعا إلى ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة و عظم الخلاف ، فهو فقط استغل الفتنة و لم يثرها . و أكبر الظن كذلك ان خصوم الشيعة أيام الأمويين و العباسيين قد بالغوا في امر عبد الله بن سبأ هذا ، ليشكّكوا في بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان و دلالته من ناحية ، و ليشنعوا على علي و شيعته من ناحية أخرى ، فيردوا بعض امور الشيعة إلى يهودي اسلم كيداً للمسلمين . وما أكثر ما شنّع خصوم الشيعة على الشيعة ، وما أكثر ما شنّع الشيعة على خصومهم في امر عثمان ، وفي غير امر عثمان " ^٢ .

^١ المرجع نفسه ص ١٣٤

^٢ المكان نفسه

ب- محمد عمارة : الخلافة و نشأة الأحزاب الإسلامية .

لم ينل عبد الله بن سبأ سوى القليل جداً من اهتمام هذا الكاتب الغير الانتاج ، منطلقاً ، شأن طه حسين ، من الشك بوجود هذا الرجل، وذلك في سياق بحثه لموضوعة " الشيعة و الإمامة " ^١ . فهذا البحث يناقش أساساً التشيع كعقيدة دينية تبلورت مع هشام بن الحكم ^٢ ، نافياً أن تكون ثمة علاقة بين الأخير و عبد الله بن سبأ الذي اسْسَى - بناء على رواية سيف - لمبدأ " الوصية " جوهر هذه العقيدة ^٣ . و يعتقد عمارة أن التشيع كان ما يزال حتى أيام هشام ، تياراً سياسياً يمثل الحزب المؤيد لحق علي في الخلافة ، ولم يأخذ وجهته " العقidiyah " إلا مع جعفر الصادق () وأبيه (الباقر) و حفيده (الرضا) ، إذ هؤلاء " تُنسب اليهم اغلب الروايات التي رواها الشيعة في صورة أحاديث عن النص و الوصي ^٤ .

^١ الخلافة و نشأة الأحزاب الإسلامية ص ١٥١ وما بعدها

^٢ فقيه من أصل فارسي عاصر الإمام جعفر الصادق

^٣ عمارة ، المرجع السابق ص ١٥٣

^٤ المرجع نفسه ص ١٥٣

وفي ضوء هذا التوجه ، يعارض عمارة المقوله التي تربط ظهور التشيع بحركة عبد الله بن سبأ في اواخر خلافة عثمان . وهذا الموقف لم ينطلق من قراءته لتفاصيل رواية سيف في الطيري الذي غاب نهائياً عن هواش هذا البحث ، ولكنه عاد الى ما اقتبسه المقرizi من هذه الرواية^١ . ولسنا هنا في مجال التعرض لمنهج عمارة الذي يجتهد أحياناً بمنأى عن النصوص التاريخية ، مما يؤدي الى اختصار الفكرة او مراودتها عن بعد . ولكن الرجوع الى النص الأصلي ، عدا أنه من اساسيات المؤرخ او الكاتب في التاريخ ، فإنه يفتح آفاقاً لا تتيحها المصادر المتأخرة او المراجع الحديثة.

ولقد انعكس ذلك على منهج عمارة فيما تطرق له من اشارات الى ابن سبأ ، دون أن يكون خارج اللبس ما صرّح به عن الاصول التاريخية التي عاد اليها قائلاً : " وتنسب اغلب مصادر التاريخ والفكر الاسلامي الى ابن السوداء هذا نشاطاً عظيماً و جهداً خرافياً" ^٢ . فهو لم يعرف اولاً عن هذه المصادر ، وثانياً إن موضوع ابن سبأ لم يرد الا في رواية واحد شكلّت المصدر الوحيد له ، و ثالثاً إن المادة التي اقتبسها ليست مطابقة تماماً لما جاء في الرواية الاساسية . فقد نسبت هذه " المصادر " لابن سبأ دوراً خرافياً بالفعل ، ومن خلالها جاءت ترجمته لدى عمارة كما يلي :

^١ المرجع نفسه ص ١٥٤

^٢ المكان نفسه

"تقول (المصادر) أنه أتى الحجاز و تكشف وقام بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر طلباً للرئاسة . ثم لعب دوراً كبيراً في ايقاع الفتنة بين الصحابة و أكابرهم ، ثم حرض على قتل عثمان و حرك الناس في هذا السبيل . و في خلافة علي أفسد المحاولات التي كادت تنجح للصلح في البصرة بين علي و طلحة و الزبير . ثم جاء دوره في ظهور التشيع عندما جاء إلى الكوفة يُظهر تعظيم علي مما لا يرضاه علي و يستغوي بذلك من ليست له صحبة و لاقفه في الدين ، كالبودي و أهل السواد و يتحدث بينهم ، وربما استقصر عندهم فعل أبي بكر و عمر و عثمان ، ويقدم أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) عليهم في الفضل . وكان يدعى أن علياً يستخصه و يخرج إليه بأسرار لا يخرج بها إلى غيره ، وعلي لا يعلم ذلك."^١

ان هذا التوصيف لدور ابن سبأ الذي اقتبس الكاتب معظمها عن "تشبيت دلائل النبوة" للقاضي عبد الجبار ، لا يجحح فقط إلى المبالغة ولكنه يتجاوز ما جاء في رواية سيف من تفاصيل . غير أن الكاتب وقد اورد ذلك ، لا يبدو مقتنعاً بهذا الدور الذي سرعان ما يصطدم عنده بالشك، متعاملاً بحذر مع "داعية" اختلف بشأنه المؤرخون ، إذ قاد البحث عنه فريقاً إلى انكار شخصيته كلياً ، ورأى "أن مؤرخي السنة

^١ المرجع السابق ص ١٥٤

قد اخترعوها كي يعلقوا في عنقها الأحداث و الصراعات و الدماء التي سببها الصراع على السلطة ، حتى تظل لصحابة رسول الله قدسيتهم و صورتهم المثلى في النفوس . كما قاد هذا البحث البعض الآخر الى التسليم بوجود هذه الشخصية ، ولكن مع رفض المبالغة في الدور الذي لعبه في تلك الاحداث^١ .

و إذا كان هذا التصنيف الذي أورده عمارة يتفق و المبدأ العام لدى الفريقين في النظرة الى شخصية ابن سباء ، فإنه ليس خاصاً بالمطلق لهذه الرؤية المجردة . ولعله يغفل من هذا المنظور حقيقة هامة ، وهي أن رائد الشك بهذه الشخصية كان طه حسين ، مقدماً قرائن علمية بارزة في هذا السبيل ، دون أن يرد كتابه (الفتنة الكبيرى) بين مصادر و مراجع الكاتب . كذلك فإن مؤرخاً غير شيعي نظر الى ابن سباء بما يتعدي الشك الى الرفض ، وهو هشام جعيط في كتابه القيم عن "الفتنه"^٢ . على أن عمارة وإن كان مطلوباً منه التعمق أكثر في دراسته لشخصية السبئي ، فإنه في وعيه اقرب الى اسقاطها من الاله التي احيطت بها ، ذاهباً الى رفض العلاقة اساساً بينها و بين حركة التشيع .

^١ المرجع نفسه ص ١٥٤ - ١٥٥

^٢ الفتنه ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر ص ٧٥

وقد خلص في تقويمه لشخصية ابن سباء وارتباطها - بما يُزعم - بحركة التشيع إلى القول : " أما فيما يختص ب موضوعنا ، موضوع التاريخ لنشأة التشيع ، فإن وجود ابن سباء - على فرض التسليم بوجوده - ... لا يصلح دليلاً على أن التشيع ظهر في ذلك التاريخ ... وحتى الشيعة لا يروون عنه شيئاً من ذلك .. و من هنا فإن عصره لا يصح أن يُتخذ بدءاً ل تاريخ الشيعة و التشيع بالمعنى الفي المعروف " ١١ .

ولكن عبد الله بن سباء - كصاحب دور يتعدي هذه المسألة - لم ينل خطأً من الدراسة المعمقة لدى عمارة ، مما كان سبباً في الارتباك الذي ساد أحياناً البحث ، وكان ناتحاً في الأساس عن ابتعاد الكاتب عن الرواية الأصلية التي ذكرت أخبار هذا " الداعية " . ولو عاد إليها ، ربما.

تفادي الوقوع في اخطاء ثلاثة ليس على المؤرخ الوقع فيها وهي :

١ - قوله أن المصادر المعتمدة لم تتنسب إلى ابن سباء القول بالنص والوصية (بل نسبت إليه فقط القول بتفضيل علي على الصحابة) ٢ . و هذا مخالف لما جاء في الرواية من قول ابن سباء في هذا المجال : " لكلنبي

^١ عمارة ، المرجع السابق ص ١٥٥

^٢ انظر الكتاب ص ١٥٥

وصي و كان علي وصي محمد... محمد خاتم الأنبياء و علي خاتم
الأوصياء^١

٢- لم يرد في الرواية ما يتعذر تحريره ابن سبأ على الخليفة عثمان ، دونما
إشارة الى التعرير برأيي بكرأو عمر ، خلافاً لما ورد عند عمارة في هذا
السبيل .

٣- ما جاء من تناقض الكاتب مع نفسه ، حين رأى أن الشيعة لم يرووا
 شيئاً من قول ابن سبأ في الوصية الوصية والنص ، في الوقت الذي وصف
الشيعة من قبل ، بأنهم يرفضون بالمطلق وجود هذا الرجل.

^١ الطبرى ج ٤ ص ٣٤٠

الرافضون

أ- محمد عبد الحفي شعبان^١ و هشام جعيط^٢ .

إنها مسألة منهج يمكن على أساسها تقويم شخصية ابن سبأ ، إذا كانت حقيقة أو أسطورة ، أو بين الاثنين كحدث عابر في مسار تلك المرحلة . ومن هذا المنطلق ربما نفسر بتجاهل المؤرخ المعاصر محمد عبد الحفي شعبان لهذه المسألة ، على الرغم من خوضه على نطاق واسع في أشكالية الفتنة وصراعات التي واكبتها . فقد اسقط تماماً الموضوعة السبعية من كتابه ، على الرغم من عودته في هذا السياق الى الطبرى و الى رواية سيف بالذات ، دون أن يعني ذلك سوى أنها لم تلامع مع المنهج العلمي ، ربما المتشدد ، الذي اختاره لدراسته ، بحيث يصبح التجاهل هنا بمثابة الرفض .

وفي ضوء هذا المنهج ، تجنب مؤرخ معاصر آخر (هشام جعيط) - ينحو الاتجاه نفسه في التاريخ مع رؤية أكثر شمولية وواقعية - التوقف

^١ صدر الاسلام والدولة الاموية

^٢ الفتنة : جدلية الدين والسياسة في الاسلام المبكر . ترجمة خليل احمد خليل

عند هذه الحادثة على الرغم من اتخاذ "الفتنة" التي بُرِزَ في ظلها ابن سبأ محوراً لكتابه . ولم تُعن وقوفه السريعة عندها ، سوى التأكيد على رفضها و عدم الاقتناع بوقوعها . وقد جاء ما ينْمِي هذا الموقف في تعقيب المؤرخ جعبيط على خطاب أبي ذر الغفاري في الشام ، المُنْدَد بـ "اكتناز" الأغنياء للمال و النزوع إلى الترف حيث يقول : " هذه الرواية التي تضع عبد الله بن سبأ على المسرح لا يمكن قبولها" ، وينتهي إلى اعتبارها رواية "ملفقة" ^١ في الأساس .

ب - أحمد لواساني : نظرات في تاريخ الأدب .

هذا الكاتب يتعرض لقضية ابن سبأ على أنها حركة مدسوسa على الإسلام ، ابطالها اليهود الذين تظاهروا بهذا الدين و ما انفكوا يتآمرون عليه حسب رأيه . و يصل به الأمر ليس إلى الشك بالرواية ، ولكن بصاحبها نفسه (سيف بن عمر) متسائلاً بشأنه فيقول " إذا لم يكن هذا يهودياً اظهر الإسلام كما فعل الكثيرون غيره من أهل افعال الأحاديث و خلق الفتنة - و أحاديثه و أخباره تؤيد هذا الظن - فهو على الأقل يفهم نفسية اليهود و يدرك اساليبهم" ^٢ . و لعل مثل هذا

^١ المرجع السابق ص ٧٥ هامش <١>

^٢ نظرات في تاريخ الأدب ٣١٨

الحكم على إخباري هو أحد ثلاثة او اربعة¹ ، اعتمد المؤرخون اساساً على روایاتهم فيما دونه من أحداث القرن الاول و معظم القرن الثاني الهجريين، قد لا يكون مقبولاً و بهذه السرعة ، لدى المؤرخ الذي ربما طعن برواية او أكثر لأحد هؤلاء الاخباريين ، ولكن اسقاط ذلك كلياً عليه سيعنجه بنا الى المبالغة ، وبالتالي سيقودنا إلى الطعن بكل الروايات التاريخية ، سواء المنسوبة لسيف او لغيره من اهل الاخبار . وليس على المؤرخ الواقعي هنا ، أن يقلل من أهمية ما أورده احسان عباس في ردّه على مرتضى العسكري بشأن سيف و طعنه بكل رواياته إذ يقول عباس:

" هل تكفي ادانة اهل الحديث لسيف بأنه ضعيف متزوك ، لتحملنا على رفض روایاته التاريخية .؟ لقد كان لأهل الحديث مقاييسهم الخاصة في التعديل و التوثيق " . ثم يضيف : " هل من الممكن أن يكون سيف قد اخْتَلَقَ كل هذا ، أي كتب تاريخاً من خياله ؟ " . وينتهي الى القول عن سيف بأنه " كان يحاول كتابة موسوعة تفصيلية للأحداث و لا يقتصر

¹ ابو مخنف ، عروة بن الحكم ، سيف بن عمر ، الواقدي

على ملخص عام ... ماذا تقول (مخاطباً العسكري) في سيف حين تتفق روایته مع روایات أخرى لرواة آخرين ؟ ^١ .

لقد ذهب اللواساني في الاتجاه الذي سار فيه العسكري ، فلم يقم بدراسة الرواية ، مفككاً عناصرها و مخترقاً نقاط الضعف فيها ، و إنما رفضها بالمطلق و عن سابق تصميم ، وهذا ما يعبّر عن قوله : "في الكذبة الكبرى التي اختلفوا فيها سيف بن عمر ، حين خلق شخصية اسمها عبد الله ابن سبا و أتباعاً له دعوا "السبعين" ، بحد حالة تصور لنا العقلية التي يمكن أن تخاطط مثل هذا التدبير و تتوصل إلى مثل هذه النتائج " ^٢ . ويتخذ مثلاً على ذلك ، ما رواه هذا الإخباري (سيف) عن دور ابن سبا في معركة الجمل ، مما لا ينسجم " مع الواقع التاريخي " أو ينطبق " مع أي من المصادر الإسلامية " حسب قوله ^٣ .

و الكاتب لا يورخ لهذه الحادثة ، بل هو معنى في الصميم بالدور اليهودي المشبوه الذي حاول اختراق الاسلام من خلال شخصيات توزعت المهام في هذا السبيل ، و كان من يمثلها برأيه : عبد الله بن سلام

^١ انظر رسالة إحسان عباس إلى مرتضى العسكري معلقاً على كتاب الأخير : عبد الله بن سبا وأساطير أخرى ص ٢٤٧ - ٢٤٩

^٢ نظارات في تاريخ الأدب ص ٣١٦ - ٣١٧

^٣ المرجع نفسه ص ٣١٧

" الذي تجمع حول اسمه كثير من الاحاديث و الاخبار المشكوك بأنها مدوسة على الاسلام " ^١ ، و كعب بن ماتع المعروف بـ كعب الاخبار الذي تبأ لعمر بن الخطاب بمقتله ، " وكان أبرز المتهمين بتسرب اخبار و تأويلات يهودية الى الاسلام على يده " ^٢ ، و وهب بن منبه " الذي يأتي في أوائل الذين ألفوا كتبًا من تلك التي أدخلت في الاسلام اخباراً كثيرة " ^٣ ، بالإضافة طبعاً الى عبد الله بن سبأ . وقد اكتفى الكاتب بما أشير الى دوره في حرب الجمل ، دون أن يتطرق الى " دعوته " في المدينة و الامصار محرضاً على عثمان و مروجاً لعلي " وصي النبي " . وبناء على هذا المفهوم - وعلى غرار السيد العسكري - يكون سيف بن عمر ، القضية التي استأثرت باهتمام الكاتب ، و ذلك على حساب السبعي الذي أصبح بداعية غير موجود ، استناداً الى " اخلاق " الرواية له في الاساس ، " وافتعال " صاحبها اخباراً لا تمت برأيه الى الحقيقة بصلة .

^١ المرجع نفسه ص ٣٢٠

^٢ المرجع نفسه ص ٣٢١

^٣ المكان نفسه

ج - مرتضى العسكري : عبد الله بن سباء وأساطير أخرى .

عود على بدء ، كما يقال ، فالسيد العسكري ، وإن لم يكن رائد إثارة الاشكالية السبئية ، فهو على الأقل مثيرها على نطاق واسع من خلال كتابه السالف ، الذي ربما كان الوحيد الذي طرق مباشرة هذا الموضوع . و هذا ما دفعه - استناداً إلى خلفية ظاهرة - إلى النقد من منظور سلبي لكافة "أحاديث سيف" ، حيث كان "منشأ الاسطورة السبئية" ^١ على حد قوله . و إذا كانت قيمة هذا الكتاب تحصر في هذه المسألة ، أي في الجهد الذي سخره في تقصي الروايات "السيفية" ، و امتدادها في عدد من المصادر و المراجع ، بما انطوت عليه من مفارقات و مقارنات في آن ، فإنه لم يشكل بحثاً وافياً و مقنعاً عن عبد الله بن سباء ، عنوان الكتاب .

و كما أشرنا في القسم الأول من دراستنا ، فإن العسكري تناول شخصية رافضاً لوجودها منذ البداية ، دون أن يأخذ بالنقد الرواية أو ينتهي إلى استنتاج بشأنها . فقد استهل كتابه بما يشبه التمهيد له ، بعنوان "الاسطورة السبئية" ، طارحاً أربعة أسئلة وهي :

^١ عبد الله بن سباء وأساطير أخرى ص ٣٥

من هو ابن سبأ، من هم السبئيون، وما هي دعاوته ، وما هي أهم أعماله؟ هذه الأسئلة الكبيرة لم تأخذ من الكتاب سوى ست صفحات، ولا يبالغ اذا قلنا أنها لم تجحب على أي منها . فقد لخص بكثير من السرعة أخبار السبئي كما جاءت في الرواية " المزعومة " لسيف الذي يصفه الكاتب بـ " القاص " ^١ ، و الذي ينسج - برأيه - خيالاً ولا يروي حقائق تاريخية . ثم يعرض بعد ذلك لكتاب السبئيين استناداً إلى الأسطورة " وهم أبو ذر الغفاري ، وعمران بن ياسر ، و محمد بن أبي حذيفة و عبد الرحمن بن عدیس ، و محمد بن أبي بكر و صعصعة بن صوحان و مالك الأشتر . والطريف أن ما ذكره عن هؤلاء لم يأت في سياق علاقتهم بالسبئية أو " انظواهها " تحت رايتها، وإنما اقتصر ذلك على ترجمة لكل منهم ، جاءت خارج الموضوع ، قبل أن ينتهي إلى تعقيب لا يعبر عن الأفكار الواردة فيها ، إذ يقول :

هذه هي اسطورة ابن سبأ بإيجاز ، و هؤلاء هم السبئيون الى مئات من أبرار المسلمين من صحابة و تابعين و نظرائهم ^٢ .
ولا يقصد هنا بالطبع سوى ما " زعم " عن هذا " الحزب السبئي " ورجالاته ، إلا أن ترجمة هؤلاء ليست بقصد السبئية على الاطلاق .

^١ المرجع نفسه ص ٣١

^٢ المرجع نفسه ص ٣٤

فكيف انخرطوا في هذا "الحزب" ، وما كان دورهم فيه ، وما كانت وجوه نشاطهم، الى اخر هذه الأسئلة؟ ذلك ما لم تجحب عليه "الترجمات" التي يمكن اتخاذ نموذج منها للدلالة على انفصاها التام عن محور الموضوع.

يقول العسكري عن الاشتراط : " هو مالك بن الحارث بن بغوث بن سلمة بن جذيمة بن مالك النخعي . أدرك رسول الله (ص) وهو من ثقة التابعين و كان رئيس قومه . شهد اليرموك فشتتت عينه و لقب بالاشتر . صحب علياً (ع) في الجمل وصفين و له مواقف شهيرة فيهما . ولاه على مصر سنة (٣٨ هـ) ، فلما وصل الى القلزم دس اليه معاوية السم بالعسل و توفي متأثراً بالسم " ^١ .

وما ذكره العسكري عن الاشتراط، لا يختلف عن بقية " كبار السبعين" السبعه الذين تحدث عنهم . معزز عن الصفة المنسوبة لهم .

بعد ذلك يورد لائحة بأسماء المرّوجين للسببية ، دون الالتزام بالتسليسل الزمني ، مبتدئاً بالشيخ محمد رشيد رضا و متتهماً بالذهبي ، مروراً بعدد كبير من المؤرخين القدامى و المحدثين مثل : الطبرى و أبي الفداء و ابن الأثير و أحمد امين و حسن ابراهيم حسن و فلهوزن وفان فلوتن الخ ^٢ على ان هذه الائحة من المرّوجين ، ملخصة" في الجدول

^١ المكان نفسه

^٢ المرجع نفسه ص ٣٧ - ٥٦

الذي ختم به هذا الفصل ، لا تبدو مهمة بالنسبة للمؤرخ الذي تعنيه جذور الرواية و ليس امتدادها في المراجع ، الا اذا كانت الغاية من ذلك مناقشة الأفكار الواردة فيها ، وهو أمر لم أجده العسكري خائضاً فيه أو مقارباً له بصورة جديه .

وإذا كان توسيع دائرة البحث ليشمل دراسة " مقارنة " لأحاديث سيف ، قد قصد الكاتب من ورائه تحرير هذا الإخباري من الثقة برواياته ، بما يسقط بداهةً على رواية ابن سبأ " الاسطورة " ، فإن هذا الموضوع لم ينل ما يستحقه على مستوى العمق و الشمولية . ولكن ما حققه العسكري من رصد لهذه الروايات (الاحاديث) و توثيق لها و مقارنة مع الروايات الأخرى ، يعتبر عملاً جليلاً بحد ذاته . وقد شكل ذلك مدخلاً الى محاولة قراءة جديدة لشخصية ابن سبأ ، بصرف النظر عما انطوت عليه من افكار مسبقة ، سرعان ما تجلت في السطور الأولى من الكتاب . ومن هذا المنظور فإن الكاتب على الرغم من أنه لم يكن البادئ في اثارة الاشكالية السبئية ، فإنه من دون شك كان اول الطارحين لها على هذا المستوى الجدالي الحاد ، مما لم يعد باستطاعة احد من المؤرخين تجاهل ذلك اللبس الذي احاط بشخصية ابن سبأ ، او الخروج من دائرة الشك ، على الأقل بدوره " الطارئ " في مواجهة أحداث الفتنة .

د- ابراهيم محمود : أئمة وسحرة ، البحث عن مسيرة الكذاب
وعبد الله بن سبأ

ونحن نكاد ننهي دراستنا عن عبد الله بن سبأ ، وصلنا هذا الكتاب الصادر حديثاً (مطلع ١٩٩٦) ، وقد رأينا لمزيد من الفائدة ادراجه بين مجموعه الدراسات التي تعرضنا لها في هذا السياق . على أن الكتاب ، وصياغة عنوانه لا يحتاج أمامها القارئ إلى التوقف ، ليدرك أنه ليس بحثاً في التاريخ ، بقدر ما يندرج في فلسفة التاريخ ، لم يضاف جديداً بارزاً إلى الموضوع السبئية ، بل أنه - أي الكتاب - ربما تركنا أكثر بلبلة بشأنها .

و هذا ما يواجهنا بالفعل منذ الصفحات الأولى من البحث و الإعلان عن موقف صاحبه من التاريخ ، باعتباره " مجالاً مفتوحاً للنظر فيه .. يحرك فيما الأسئلة الكبرى و المتعلقة بما يتضمنه من علاقات وما يشيره من افكار و ما يقوم عليه من حجب الافكار و ثغرات تتحلل بناءه الفكري ، و تداخلات تستدعي المجادلة " ^١ .

وفي ضوء هذا الموقف . فهو يلتجئ موضوعه بحذر شديد و ميل إلى "المساءلة" و "محاولة" الاستنطاق ، وهما عبارتان غالباً ما استخدمهما

^١ انظر الكتاب ص ٤١

في التعاطي مع النص التاريخي بمحمله ، و الذي يبقى عنده موضع ارتياح و لذلك يرى أن شخصية ابن سبأ " بولغ في أهميتها و خطورتها " ^١ ، كمحرك رئيس للفتنه التي " شَكَّلتَ المَبْعَثَ لِظَهُورِ الْمَنَاوِئِ لِلْوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي طَابِعِهَا السُّنِّيِّ " حسب تعبيره ^٢ . هل يرى الكاتب هنا أن عبد الله بن سبأ شخصية مختلفة في التاريخ ؟ قد لا يبدو ذلك واضحاً ، على الأقل في مقارنته مع شخصية واقعية من رموز الرّدة ، اعني بها مسيلمة الكذاب ، خصوصاً المقارنة بين ما يعتبره الكاتب " منافسة " من الاخير للنبي ، و " طعن السبيئي " في شخصية عثمان ، بل السابقين عليه ، بدعوى أن علياً وصي النبي محمد ^٣ " .

والكاتب هنا يعود الى رواية سيف في حيثياتها المعروفة^٤ ، أي أنه ينطلق من اعتراف بشخصية ابن سبأ ، إلا أنها " تقارب الاسطورة بالنسبة للتاريخ " حسب تعبيره ^٥ . ويورد دلالات كثيرة في هذا بحال تقلل من أهمية الدور المنسوب اليه ، ومن ذلك استغرابه من انحراف شخصية صحابية كبيرة " ومن الموعودين بالجنة " مثل عمّار ابن ياسر في هذه

^١ المرجع نفسه ص ١٧

^٢ المكان نفسه

^٣ المرجع نفسه ص ١٦٧

^٤ المرجع نفسه ص ١٦٩

^٥ المرجع نفسه ص ١٦٧

"الشبكة السبئية"^١ . غير أن الكاتب يعود مرة أخرى إلى بحث هذا الموضوعة على مستوى التاريخ و علاقتها بـ (اليهودية المؤسورة) ، أو ما عُرف في الأدبيات الإسلامية بالأسرائيليات، متعمداً الدخول من هذا الباب إلى عالم عبد الله بن سبأ ، باحثاً عنه و ملامساً حقيقة دوره الغامض .

يقول محمود : " ان ابن سبأ أو ابن اليهودية أو ابن السوداء للذم والتحقير ، شكل شخصية اكتسبت كل الأبعاد التي تجعلها ، وجعلتها ، اسطورية من جهة ، وقدمها وقدمتها الدراسات التي تناولتها داهية في التاريخ العربي الإسلامي في فترة من أكثر فتراته حساسية وDRAMATIKية (في القرن الأول منه) من جهة ثانية ، وتسند و استند إليها دوراً تاماً في تلخيص و توثيق هذا التاريخ ، ومن خلال أكثر الرموز الدينية حضوراً (أو من أكثرها على الأقل) في هذا التاريخ ، و زححة جانبية و تشطياتية له من جهة ثالثة . تلكم هي الشخصية الرمز المسماة ... عبد الله بن سبأ " ^٢ . وفي ضوء ما تقدم ، ينزع الكاتب إلى اعتبار هذه الشخصية ، شخصية اسطورية ، الا ان ذلك غير مطابق لوجهة العسكري الذي ينفي وجودها منذ أول كلمة في كتابه ، إذ تبقى نظرته (محمود)

^١ المرجع نفسه ص ١٧٥

^٢ المرجع نفسه ص ١٩٢

محكومة بهذا المنحى الجدلـي : " ليس الموضوع الذي هو في متناولنا ، يقتصر على حقيقة هذه الشخصية ... إنما هو ما يُحرك هذه الشخصية تارـيخياً إذ البحث في موضوع عبد الله بن سـبـا وما إذا كان فعلـاً شخصـية حقيقـية أم لا ، لا يـفـيدـنا ، لأن ذلك لن يـزـحـزـحـ هذهـ الشـخـصـيـةـ ، بالـعـلـاقـاتـ الـتـيـ عـرـفـتـ بـهـاـ وـ الدـلـالـاتـ الـخـافـةـ بـهـاـ ، وـ لـنـ يـغـيـرـ ذـلـكـ فـيـهـاـ مـوـقـعـاـ وـ دـلـالـةـ تـارـيـخـيـنـ شـيـئـاـ وـ بـسـهـوـلـةـ " ١ .

ولـاـ اـشـكـ انـ الـكـاتـبـ يـعـلـمـ حـسـنـاـ مـرـهـفـاـ ، مـكـنـهـ منـ الـخـوـضـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـسـاحـةـ "ـ الـلـغـمـةـ "ـ بـرـبـاطـةـ جـاـشـ ، دـوـنـ الـاـنـصـيـاعـ لـلـمـسـلـمـاتـ الـتـيـ بـدـتـ شـبـهـ قـائـمـةـ فـيـ الـدـرـاسـاتـ الـتـارـيـخـيـةـ بـصـدـدـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ .ـ بـيـدـ أـنـهـ يـخـوـضـ فـيـهـاـ عـلـىـ مـسـتـوـىـ فـكـرـيـ ، مـسـتـنـطـقـاـ النـصـ فـيـ هـذـاـ الصـحـبـ الـجـدـالـيـ الـذـيـ يـصـبـحـ غـاـيـةـ فـيـ مـعـظـمـ الـأـحـيـانـ لـدـيـهـ ، بـخـلـافـ طـرـيـقـةـ الـمـؤـرـخـ وـ مـنـهـاجـهـ الـذـيـ يـتوـسـلـ اـثـارـةـ الـجـدـلـ طـرـيـقـاـ إـلـىـ مـقـارـبـةـ الـحـقـقـيـةـ الـتـارـيـخـيـةـ .ـ وـ لـذـلـكـ فـهـوـ يـعـنـ فـيـ طـرـحـ الـأـسـئـلـةـ ، اوـ الـمـسـأـلـةـ -ـ كـمـاـ يـؤـثـرـهـاـ -ـ مـنـ غـيرـ أـنـ تـوـفـرـ لـهـ إـجـابـاتـ هـادـئـهـ ، تـسـهـمـ فـيـ اـضـاءـةـ الـمـدىـ الـوـاسـعـ الـذـيـ يـسـبـحـ فـيـهـ .ـ وـ لـعـلـهـ يـسـدـوـ اـكـثـرـ اـقـرـابـاـ مـنـ مـوـقـعـ الـمـؤـرـخـ ، فـيـ الصـفـحـاتـ الـتـيـ يـنـاقـشـ فـيـهـاـ

^١ المـرـجـعـ نـفـسـهـ صـ ١٩٣

الموضوع السبئية من خلال النظرة في المصادر إليها ، متوقفاً عند ستة من المؤرخين و الفقهاء من تناولوها في عهود متفاوتة :

١ - الطبرى : يلاحظ الكاتب - متأثراً بنظرية طه حسين - برغم تقديره للمكانة التي يحتلها " هذا المؤرخ الاسلامي الكبير " ، أن ركاماً الروايات التي أوردها لم ينقذه من الواقع في "التناقض" ، إذ "كيف يمكن - والكلام للكاتب - الجمع بين يهودي ، يُعرف بمثل هذا الخبث والدنس والنفاق والكذب ، و صحابي جليل ورع كان جريحاً في مواجهته للآخرين (أبو ذر الغفارى) ... فهل كان بحاجة إلى ابن سباء وهو نقيبة في نوایاه ، ليأخذ منه درساً في الثورية العقائدية ، وفي وضع حد لظلم المسلم في المسلم و إحقاق الحق " ^١ ويمضي في هذه المواجهة مع المؤرخ الكبير ، متسائلاً "مرة أخرى" كيف يمكن الجمع بين جهاز الشرطة الذي أسسه عثمان ، و النشاط المكثف الذي كان يقوم به اليهودي ابن سباء ^٢ ، و بالتالي كيف يُستدعي الغفارى للتحقيق معه أكثر من مرة في الشام و لا ينطبق ذلك على ابن سباء الذي اكتفى معاویة بطرده ، من "دون تعریضه لعملية تأديب معينة" ^٣ . و يخلص إلى التشكيك في الرواية التي

^١ المرجع نفسه ص ١٩٢ - ١٩٥

^٢ المرجع نفسه ص ١٩٦

^٣ المكان نفسه

اوردها الطيري من غير تمعن أو تمحيص ، بل أن الشك يذهب إلى المؤرخ نفسه (الطيري) الذي لم ينف عنه الكاتب محمود التأثر بخلفيته "المعتقدية في تخليلها المذهبي الرسمي تماماً" حسب تعبيره .

٢- المسعودي : لا يرى الكاتب عند هذا المؤرخ ، علاقة واضحة بين أطراف الازمة - الفتنه (عثمان ، ابو ذرّ ، ابن سبأ) ، إذ يكتفي المسعودي من ذلك بمواجهة بين الأولين و كعب الأحبار ، من خلال مروية مقتبسة على ما ييدو عن الطيري . ويعتقد محمود أن النزعة " الشيعية " ^٢ عند المسعودي كانت وراء إهماله لأخبار ابن سبأ .

٣ - الشهريستاني : يقتصر ما رواه عن هذا الفقيه ، على اشارة عن ابن سبأ متزامناً مع خلافة علي ، بوصفه أحد الغلاة الذين ظهروا في عهده ، " و كأنه - والكلام للكاتب - يلجم ألسنة الغمز ... باشارته هذه في ربطه ربطاً خفياً ، ومن ثم وظيفياً (بنوياً) بين نشاطات علي ، والنزوع المذهبي " الايديولوجي " الشيعي باسمه ... أي أنه يؤرخ لوعي انقسامي في حياة الامة (الاسلامية) و طائفي و مللي ، حيث تخللت الصراعات الدموية واضحة " ^٣ .

^١ المرجع نفسه ص ١٩٨

^٢ المرجع نفسه ص ١٩٩

^٣ المرجع نفسه ص ٢٠١

٤ - أبو الحسن الأشعري : وقد اشار الى الغلاة و منهم السبئية الذين زعموا "أن علياً لم يعت ، وانه يرجع الى الدنيا قبل يوم القيمة ، فيملأ الارض عدلاً كما ملئت جحوراً" ^١ . أي أن الأشعري يربط ، وإن بخلفية أقل بروزاً من الفقيه السابق ، بين " هؤلاء الغلاة ، وعلى نفسه ربطاً معتقداتياً... فيجري التركيز على البعد الانقسامي في امة الاسلام من جهة وتنبيه القارئ الى هذا المطبع اليهودي المؤثر و السليبي للتشيع من جهة ثانية." ^٢

٥ - ابن الأثير : يختصر ، برأي الكاتب ، حديثه في هذه المسألة ، على العلاقة بين الفتنة " والداعية " اليهودي ، محاولاً - كما الطبراني الذي تأثر مباشرة به - إظهار الهدف التضليلي والإفسادي للحركة السبئية .

٦ - ابن خلدون: يتسع الكاتب في شرح ملابسات الحركة السبئية عند هذا المؤرخ الذي " يبدو - برأيه - أكثر طوعية مع فكرة الخطر اليهودي المؤسطـر ... وأكثر صراحة و تشدداً حول هذا الموضوع ، عندما يعظم الدور اليهودي (ابن السوداء) و دفعه للناس في طريق

^١ المكان نفسه

^٢ المرجع نفسه ص ٢٠٢

الظلالة والفساد و الغوغائية و القتل ^١ . و يروي عن ابن خلدون أن عبد الله بن سبأ ^٢ كان متشيعاً لأهل البيت ... و كان يجد باستمرار من ينخدع به ... و من بين هؤلاء الذين دخلوا دائرة السرية ، عمّار بن ياسر ^٣ . أما رأي الكاتب محمود فيما أورده ابن خلدون بشأن هذه الموضوعة ، فأنه يرد ذلك إلى الخلفية "السننية" المتشددة لهذا المؤرخ الذي كانت الخلافة هاجسه ، شأن معظم المؤرخين المتحرّكين في دائرة سلطتها ، باعتبارها رمز وحدة الإسلام ، وكل مناوى لها لا يتزدّد أحد منهم في تصنيفه خارج الإسلام ، و منهم بالطبع أو "على رأسهم" ، عبد الله بن سبأ و لعل الكاتب محمود ، وهو لا ييدو معنياً كثيراً من وجهة نظر المؤرخ - كما سبقت الإشارة - بشخصية عبد الله بن سبأ ، بقدر ما تدرج عنده في العملية النقدية للفكر التاريخي ، يراود في وعيه مسألة مهمة في هذا المجال ، تأخذ به إلى اشكالية التاريخ برمته ، خصوصاً على مستوى العلاقة بين المؤرخ و الحدث التاريخي ، وما يعكسه الأخير من مؤثرات على الأول يجعله مصنفاً في هذا الإتجاه أو ذاك . و بهذا المعنى - كما يرى الكاتب - "لایعود ابن سبأ هو الموضوع الذي يبحث فيه ،

^١ المكان نفسه

^٢ المكان نفسه . أنظر ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٤

^٣ المكان نفسه ص ٤٠٤

وإنما هو الفاعل في المؤرخ و الباحث عنه ، فهو إذ يكتب عن ابن سباء أو يغض النظر ، فإنما يفصح عن كينونته و جبّلتها الإنسانية ، عن حضورها الواقعي و مسارها الاجتماعي و يستنطق ذاته وبالتالي ، وهل كنا نستطيع أن نعرف المؤرخ على حقيقته هذه لو لا ابن سباء ؟ فهو في الحديث عنه مصنف للمؤرخين و مختبر لامكاناتهم و مدى حضورهم في التاريخ نفسه " ^١ .

و من البديهي أن يوصله هذا المنطق الى التشكيك بالرواية " السببية " اساساً أو رفضها ضمناً ، لاسيما و أن الطبرى الذى اورد تفاصيلها حوى " تاريخه " العديد من الروايات المتناقضة و بينها هذه الرواية ، بما انطوت عليه من نقاط ضعف واضحة . و يلامس الكاتب هنا المنهج الذى انضوت فيه كتابة التاريخ في ذلك الزمن ، باتخاذها وجهة معينة لعدة قرون ، واستمرارها على هذا النحو في معظم الدراسات الحديثة . ولكن تفسيره لأشكالية التراكم عند المؤرخ " الاسلامي " ، قد لا يكون مقنعاً من وجهة نظر البحث التاريخي الذى يُنى على منطق الحديث ، وليس بترك المجال أمام القارئ " لاستخلاص النتيجة " ^٢ وفقاً للمنهج الطبرى المعروف . ذلك أن مثل هذا التراكم الذى كان بعضه عشوائياً

^١ المرجع نفسه ص ٢٠٤

^٢ المرجع نفسه ص ٢٠٥

وربما الآخر مقصوداً ، أسهם في بلبة هذا التاريخ ، وجعل كثيراً من أحداثه ملتبسة ، أو مزدوجة المغازي و الأبعاد ، مما كرس لاحقاً مبدأ التوليف والتسوية بين اسلام غير جذري ، وبين سلطة سياسة يتزورض فيها و تقوده مصالحها . و الفتنة التي بربز بين اركانها عبد الله بن سبا ، ربما لم تكن في حجمها الذي بولغ فيه على الارض ، ولكنها تصبح أكثر نبضاً في روایات المؤرخين ، إذ تلقوها - كما غيرها من الاحداث - بالخلفيه ذاتها التي دفعت بهم الى هذا المضمار ، وما توالد عنها من دوائر كبيرة و صغيرة ، جعلت صورتها التاريخية غائمة أو مشوشة .

وإذا كان الكاتب محمود لم يصل في بحثه الى نتائج ترضي المؤرخ بتصدي الاشكالية السبئية ، فإن اثارته لهذا الموضوع من زاوية منهج التاريخ و فلسفته ، أمر جدير بالأهتمام و التنويه . فالمؤرخ إنما يعنيه النص بذاته و يوثر الدوران فيه ، ناقداً و محلاً و مستخلصاً ، أكثر من الاستغراق في الجدل حوله ، وان كان على مسافة قريبة منه . و لكن هذا الكاتب - كما يتضح من دراسته - لم يكن هدفه التاريخ لابن سبا و دوره في الفتنة الشهيرة ، بقدر ما تونخى الوصول الى نظرية في التاريخ ، وهو امر حرق فيه بصورة ما بمحاجاً ، وكان لابد في النتيجه أن يصب شئ من ذلك في جوهر الموضوع ، و أن تحدث " المساءلات " هزة فيه ، مما

يعزز إعادة قراءته من خلال رؤية المؤرخ نفسه . قد يتجلّى ذلك على الأقل في استنتاجه الأخير بخصوص هذه المسألة :

"هكذا رأينا عبد الله بن سبأ ، حيث كانت حقيقته التاريخية معرّضة لأكثر من حالة نهب تاريخيه و إضاعة لمعالما الفعليه و بعثرة بلغرافيتها الاجتماعيه و التاريخية ، نظراً ل تعرضها الكبير لرهانات مختلفة لا زالت تصاعد و تناهى و تصارع تاريخياً في الواقع الراهن نفسه " ١ .

¹ المرجع نفسه ص ٢٥٤

خاتمة

ناقشت فيما سلف أبرز الأفكار في موضوعة عبد الله بن سباء ، وهي كما رأينا متفاوتة بين القطع بوجوده ، والتشكيك به ، و الرفض المطلق له . و لم يكن هذا التفاوت في الواقع الا نتيجة لتضارب المنهج الذي كان سردياً لدى الاتجاه الأول، فيما نزع الى التحليل و الاستدلال مع الاتجاه الثاني ، و تطرق نحو الاجتهاد الخاصل غير المسوغ دائماً في ظل الاتجاه الثالث .

ولقد حاولت خلال دراستي لهذه القضية الشائكة ، التعامل معها بحيادية المؤرخ ، دون أن يأخذني عن سابق تصميم اتجاه ما الا ما كان يتقاطع بينه و بين ما وصلتُ اليه من استنتاجات نضح بها النص التاريخي دون غيره . ولعل النظره الدينية التي اقتبس اصحاب الاتجاه الأول كثيراً منها عن أسلافهم - من قرأوا التاريخ في رحاب "الحديث" و "السيرة" - قد انعكست على مفاهيمهم التي ظلت خاضعة لها على مساحة النص

التاريخي ، مكتسباً الهالة نفسها ، وربما أكثر مما كان لدى الأوائل نحوه . و لذلك فإن قراءة بعضهم لظاهرة السببية لم تختلف عن تلك التي تناولت القضايا الأخرى في التاريخ الإسلامي ، حيث كانت الرواية الواحدة - غالباً الأولى - تحفر لهم الطريق ، غير ملتفتين إلى روایات أخرى قد تنشر من الضوء ما ليس بإمكان "روایتهم" القيام به . ومن هنا جاء تسليم هؤلاء المؤرخين بشخصية ابن سباء وقبولهم لرواية سيف ، دونما نقد أو مقارنه ، كنتيجة لهذا التقوّع داخل منهاجهم الذي بقي جامداً ولم تطرقه رياح المؤثرات العلمية الجديدة .

اما الاتجاه الثاني ، فكان لديه من المرونة ما جعله أكثر قدرة على التوغل ليس فقط في ثنايا الرواية السببية بل في تفاصيل المرحلة كاملة ، رابطاً بدقة بين أجزائها ، و مدركاً في وعيه أبعادها ، و مقارباً وبالتالي منطق الأحداث فيها . ولعل خير من يمثله، الكاتب الكبير طه حسين الذي تناول شخصية ابن سباء بذهنية المؤرخ اللماح ، فلم يقع في شرك الرواية مستسلماً لها ، و إنما جلأ إلى تفكيكها و إخضاعها للنقد الهدائى ، قبل أن يعيد جمع اطرافها و يتنهى أخيراً إلى التشكيك بوجود هذه الشخصية التي وصفها بـ "الطارئة" على المرحلة . وكان ذلك أقصى ما يمكن للمؤرخ القيام به ، إذ ليس عليه اتخاذ قرار ما بشأن أيّ من الأحداث دون العودة

إلى النص التاريخي الذي وحده يقرر بعد دراسته ، مدى الواقعية التي ينطوي عليها ، وهي نسبية في شتى الاحوال .

وفي ضوء ذلك ، فإن المسألة لا تبقى محصوره بوجود ابن سبا أو عدم وجوده ، لأن المؤرخ لا خيار له في النهاية سوى التعامل مع النص كأمر واقع ، بل تصبح في الدرجة الأولى محصورة بالدور الذي نسب لهذا الرجل القيام به و مدى حجمة في المرحلة و تأثيره في تطوراتها . هذا ما تنبه له طه حسين عندما رأى أن " الفتنة " نضجت في الامصار كنتيجة للسخط الذي عمّ فيها على سياسة الخليفة و عماله ، ولم تتأثر بعوامل " طارئة " دفع بها ذلك الرجل " الخارق " كما صورته الرواية المنسوبة لسيف بن عمر . فلم يتردد هذا الكاتب من حسم هذه المسألة قائلاً : "لست ادرى أكان لإبن سبا خطر ايام عثمان أم لم يكن . ولکني اقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ليس ذا شأن ، وما كان المسلمين في عصر عثمان يبعث بعقولهم و آرائهم و سلطانهم طارئ من أهل الكتاب أيام عثمان و لم يكدر يسلم حتى أنتدب لنشر الفتنة و إذاعة الكيد في جميع الأقطار " ١ .

^١ طه حسين ، الفتنة الكبيرى ص ١٣٢

وأما الاتجاه الثالث و الآخر فقد تراوح بين نظريتين : عَبَر عن الأولى هشام جعيط من خلال دراسة معمقة لتفاصيل الفتنة ، واصفًا الرواية بأنها "تَبَيَّه و تَخْطُئ" و متَهِيًّا إلى وجوب "رفضها بشكل قاطع" ^١ . و الثانية عَبَر عنها مرتضى العسكري الذي رأى في ابن سبأ مجرد اسطورة و شخصية مختلفة في الأساس . وهو - كما رأينا - منطلق من نظرة اجتهادية مسبقة إلى هذه الشخصية . وليس من دراسة نقدية للرواية التاريخية التي تفردت بذكرها . أي أن هذا المؤرخ لم يعترف بالنص الذي اعتبره مدسوساً ، كما الشخصية نفسها ، لتشويه صورة التشيع والدور الذي اتخذه على في الأحداث السابقة على اغتيال الخليفة عثمان .

ولسنا في النهاية متَوَهِين الدخول في جدل قد ينتهي عقيماً في صدد هذه المسألة ، و لكننا و نحن نؤرخ من دون أية خلفية لإبن سبأ ، لأنحد فائدة في الخروج على النَّص التارِيَخِي ، بل على العكس من ذلك علينا أن نفريح في أرجائه و نحوس كافة الأبعاد فيه ، ايجابيه كانت أم سلبية ، لتحقيق مقاربة ممكنه باتجاه الحقيقة التاريخية . وعندما يصبح التاريخ مأْخوذًا بمنطق الجسم ، فُيُنتَظَر إلى روایة على أنها مقبولة بالمطلق و أخرى

^١ الفتنة ، جدلية الدين و السياسة ص ١٠٩

مرفوضة بالمطلق أيضاً ، فإنه يتحول حينئذٍ إلى ساحة صراع دائم ولا يعود ثمة مجال أمامها للبحث الموضوعي الهدى .

ولابد من العودة أخيراً إلى ما سبق أن خلصنا إليه ، وهو المتعلق بالدور المنسوب إلى ابن سبأ ، و ليس إلى الشخصية ذاتها و ما نسج حولها من قدرة فائقة . فهذا الدور كان هامشياً و لم يترك حتى بصمات خفيفة على مسار المرحلة ، ولم يُشكّل بالتالي أية فاعلية في المنحى الذي أضلَّ الكثير من المؤرخين ، فسلموا به كداعية أمسك في يده بزمام الحركة التي قامت بالثورة على الخليفة . وإذا كانت الرواية منطوية على نقاط ضعف بارزة ، من بينها تفرد الطبرى بها شأن روايات أخرى ساقها هذا المؤرخ ليثبت سعة اطلاعه و شمولية " تاریخه " و موسوعيته ، فإن ذلك ليس كافياً لرفضها أو مقاطعتها و التأريخ للمرحلة بمعزل عنها .

إنه الدور - الأسطورة وما اكتنفه من تضليل و مبالغة ، أكثر من الرجل - الأسطورة الذي قد يكون مجرد تلقيق أو لا يكون . فهو أقل حجماً من أن يرتفع إلى الدور ، والى مستوى أن يقود النخبة تحت قيادته .

المصادر و المراجع

- ابن الأثير : الكامل في التاريخ . دار صادر - بيروت ١٩٧٩ .
- ابن خلدون : كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخير . مؤسسة الاعلمي -
بيروت ١٩٧١ .
- المقدمة: دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩
- ابن قتيبة : الإمامة و السياسة (يُنسب له) . المكتبة التجارية الكبرى
- القاهرة د. ت .
- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس . تحقيق عبد الله أنيس طباع . دار
النشر للجامعيين - بيروت د. ت .
- ابن منظور : لسان العرب . دار صادر - بيروت . د. ت .
- خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط : تحقيق سهيل زكار .
دمشق ١٩٦٨ .
- سيف بن عمر التميمي : الفتنة و وقعة الجمل . تصنیف احمد راتب
عرموش دار النفائس - بيروت ١٩٧٢ .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء . تحقيق محي الدين عبد الحميد . القاهرة
١٩٦٩ .

- الطيري ، تاريخ الرسل و الملوك . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف . عصر ١٩٦٧

- المسعودي : مروج الذهب و معادن الجوهر . تحقيق يوسف اسعد دافنر . دار الأندلس بيروت ١٩٧٣ .

- ياقوت الحموي : معجم الأدباء . دار إحياء التراث العربي . بيروت د. ت .

- العقوبي : تاريخ العقوبي . دار صادر - بيروت ١٩٦٠ .

- امين ، أحمد : فجر الاسلام . دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٩ .
ضحى الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦١ .

- جعيط ، هشام : الفتنة ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر .
ترجمة خليل أحمد خليل - دار الطليعة بيروت د.ت .

- حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي و الديني و الثقافي
والاجتماعي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .

- حسين ، طه : الفتنة الكبرى . دار المعارف . عصر ١٩٦٦ .

- دوري ، عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . دار
المشرق - بيروت ١٩٨٣ .

- زكار ، سهيل : التاريخ عند العرب . دار الفكر د. ت .

- شعبان ، محمد عبد الحي : صدر الاسلام و الدولة الاموية . الدار الأهلية للنشر - بيروت ١٩٨٣ .

- شلبي ، احمد : موسوعة التاريخ الاسلامي . مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ .

- عبد المقصود ، عبد الفتاح : الامام علي بن ابي طالب . منشورات مكتبة العرفان . بيروت د.ت .

- العسكري ، مرتضى : عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى . منشورات كلية أصول الدين - بغداد ١٩٦٨ .

- العقاد ، عباس محمود : عبقرية عثمان . المكتبة المصرية - صيدا . د.ت .

- عمارة ، محمد: الخلافة و نشأة الأحزاب الاسلامية . المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ١٩٧٧ .

- فان فلوتن ، ج. : السيطرة العرية و التشيع و المعتقدات المهدية في ظل خلافة بنى امية - ترجمة ابراهيم بيضون . دار النهضة العربية - بيروت ١٩٩٦ .

- فلهازن ، ي. . : الخوارج والشيعة . ترجمة عبد الرحمن بدوي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ - تاريخ الدولة العربية . ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ١٩٦٨ .

- لاكروست ، إيف ، العلامة ابن خلدون . ترجمة ميشال سليمان . دار ابن خلدون ١٩٧٨

- لواساني ، أحمد : نظرات في تاريخ الأدب - بيروت ١٩٨١ .

- محمود ، إبراهيم : أئمة و سحراء ، البحث عن مسيلمة الكذاب و عبد الله بن سبأ . منشورات رياض الريس ١٩٩٦

- مصطفى ، شاكر : التاريخ العربي و المؤرخون . دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٧٨ .

كتب صدرت للمؤلف

- ١ - تاريخ العرب السياسي ، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد ، دار الفكر بيروت ١٩٧٤ .
- ٢ - التوابون . ط ١ - دار التراث الاسلامي ١٩٧٥ ط ٢ ، دار التعارف ١٩٨٠ .
- ٣ - الدولة العربية في اسبانية ، من الفتح حتى سقوط الخلافة (٣ طبعات) دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٨ - ١٩٨٠ - ١٩٨٦ .
- ٤ - من دولة عمر الى دولة عبد الملك ، دراسة في تكوّن الاتجاهات السياسية في القرن الاول الهجري . ط ١ دار النهضة العربية ١٩٧٩ ، ط ٢ دار إقرأ ١٩٨٦ ، ط ٣ دار النهضة العربية ١٩٩١ .
- ٥ - الدولة الاموية و المعارضة ، مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي فان فلوتن مع ترجمة له ، ط ١ دار الحداثة ١٩٨٠ ،

٢٣ ، المؤسسة الجامعية للدراسات ١٩٨٥ ، ط ٣ . دار النهضة العربية
١٩٩٦ .

٦- المجاز والدولة الاسلامية ، دراسة في اشكالية العلاقة في القرن الاول
المجري ، ط ١ المؤسسة الجامعية ١٩٨٣ . ط ٢ دار النهضة العربية ١٩٩٥ .

٧- اتجاهات المعارضة في الكوفة ، دراسة في التكوين الاجتماعي
والسياسي . (٤١ - ٧١ هـ) معهد الإنماء العربي ١٩٨٦ .

٨- الأمراء الأمويون الشعراء في الاندلس ، دراسة في أدب السلطة . دار
النهضة العربية ١٩٨٧ .

٩- مؤتمر الجاییه ط ١ دار اقرأ ١٩٨٨ . ط ٢ دار النهضة العربية ١٩٩٦ .

١٠- الأنصار والرسول ، اشكاليات الهجرة و المعارضة في الدولة
الاسلامية الاولى ، معهد الإنماء العربي ١٩٨٩ .

١١- مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية . دار المؤرخ العربي
١٩٩٥ .

١٢- بلاد الشام ، اشكاليات الموضع و الدور في العصور الاسلامية . دار
المنتخب ١٩٩٦ .

١٣- عبد الله بن سبأ ، اشكالية النص و الدور الاسطورة . دار المؤرخ
العربي ١٩٩٧ .

١٤- الإمام علي ، في رؤية "المنهج" و رواية التاريخ _ (يصدر قريباً)

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٤	الاهداء
٥	مقدمة
١٣	القسم الاول : عبد الله بن سبا الحدث و الدلالة
١٤	١ - الاسرائيليات
٢٣	٢ - من هو عبد الله بن سبا
٤٥	القسم الثاني : عبد الله بن سبا في الدراسات الحديثة والمعاصرة ..
٤٦	مدخل
٤٩	١ - المحاذون الى الرواية
٤٩	أ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي
٥٣	ب - أحمد أمين : فجر الاسلام - ضحى الاسلام
٥٨	ج - أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي
٦٤	د - عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن أبي طالب
٦٩	ه - عباس محمود العقاد : عبقرية عثمان
٧٤	و - فلهرزن و فان فلوتن

٢ - المشكّون ٧٨	٧٨
أ - طه حسين : الفتنة الكبرى ٨٨	٨٨
ب - محمد عمارة : الخلاف و نشأة الأحزاب الإسلامية ٩٤	٩٤
٣ - الرافضون ٩٤	٩٤
أ - محمد عبد الحفيظ شعبان و هشام جعيط ٩٥	٩٤
ب - أحمد اللواساني : نظرات في تاريخ الادب ٩٥	٩٥
ج - مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى ٩٩	٩٩
د - ابراهيم محمود : أئمة و سحررة ، البحث عن مسلمة الكذاب و عبد الله بن سبأ ١٠٣	١٠٣
خاتمة ١١٤	١١٤
المصادر و المراجع ١١٩	١١٩
كتب صدرت للمؤلف ١٢٣	١٢٣
فهرس الموضوعات ١٢٥	١٢٥

من مقدمة الكتاب

ويبقى في النهاية أن هذا الكتاب
لم يكن الهدف منه ، الدخول في
جدل حول الداعية السبئي ، سواء
كان شخصية واقعية أم اسطورية ،
وإنما هو محاولة قراءة جديدة ،
حدثاً ودلالة داخل النص التاريخي
وزمانه ، ذلك الذي تبقى العلاقة
معه هي الأساس ، وليس شخصية
"البطل" التي تصبح ثانوية في ركوب
"الخطر" ، حيث لا تنتهي معاناة الموزخ .